جازتاب

روايــة

الطبـعـة الأولـــى
2020م- 1442هـ

ديـــوان العـــرب
للنشر و التـوزيـــع

ملحـوظـــــــــة: حقوق الطبع جميعها محفوظة للمؤلف

عنـــوان الكتاب: جازتاب

اســـم المـؤلف: غانم عمران المعموري

التصنيف الأدبي: رواية

رقم الإيـــــداع: 16272 / 2020

الترقيـــم الدولي: 2 - 33 - 6830 - 977 – 978

تـصـمـيـم الغلاف: د. محمد وجيه

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

التنسيق الداخلي: د. محمد وجيه

رقـــــم الطبعـة: الطبعة الأولى

المديـــــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

جازتاب

رواية

غانم عمران المعموري

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
حقوق حلمك

إهداء

إلى روحيهما الطاهرتين

أبي و

أمي.

إلى من سهرة لأجلي زوجتي الغالية

أولادي نبض قلبي.

أخوتي وأخواتي كل حياتي .

غانم عمران المعموري

****

بَدت كأرملة هَجرها العشق وضاجعتها الوحدة كلّ ليلة، حتى باتت حُبلى الفِراق والمرارة، وقلبها كأوتار عودٍ تُبكيها الألحان الحزينة، والحياة التي ألبَستها خماراً أسود لم تكن سبباً في خياطته، قساوة الأيام والأشهر والسنين لم تمضغها بأسنانها، وإنما رحى الموتُ الحجرية تطحنُ كل من يعترضُها، جميلة هي كزهرةِ الجوري التي يغدر بها الخريف ويسلبها أجمل تفتحاتها غير مكترث بتساقط أوراقها، شعَرَت بأنها تَحملُ كهفاً في قَلبِها وشتاءً بارداً في أعماقِها، وليلاً أسود دامساً في روحِها، وإعصاراً حارقاً في رأسِها، أخذ الأصيل يلتحف المدى، تعسرت الرؤيا تلك البنايات أصبحت كأوهام، رذاذ المطر يداوي جراحَها الملتهبة، الوحل يمسك بقدميها الناعمتين، عيناها الغائرتان ونصف المغمضتين تغوصان في مستنقعٍ يطغى عليه الركود بألوانٍ مختلفة تتلوى بجسدِها الطري، مع تموجاتِ الليل المُظلم شعرت كأنَّ الليلَ يريد أن يغتصبها ويمزق ملابسها، بعد أن كانت في الماضي ترتديه ثوباً أبيض شفافاً يغطي مفاتن الحياة، أرجوحة معلقة بحبالٍ رقيقة يسوقها الصباح ليستلمِها الليل، حَست بأنّ العالم يُشاكسها ولا يعطيها سوى الوجه الأسود ويجعلها في سُباتٍ دائم، تولول دون صوت من كافةِ أعضائها المتشنجة، تودعها الطرقات والأزقة الضيقة كل شيء حولها ضبابي، هامَت شاردة الذهن تُفكر فيه بجنونٍ بين الأشجار وعتمةِ الليل ونباح الكِلاب وثقل جَسدها، فاضت عيناها دموعاً حارقة وألمًا،

تَسمع صوته وأنينه، صرخت من أعماقِها.. النور والحبّ لكل الناس فلماذا لا يعطونني غير الكراهية والظلام؟

اختنق بعبْرته تَمردت أفكاره، حاول عَبَثاً أن يُطيرها مع النسمات القادمة مِن بعيدِ مع السُحبِ السوداء، نظر إلى المطرِ فكل قطرة توحي له رسالة تحمل معها كلماتٍ وأشواقًا ودموعًا حرّك رأسه إلى جهاتٍ مختلفة كأنه قد نُصب في جهازِ الأنواء الجوية والأرض تحته سرعان ما تحولت إلى حفرٍ ممتلئة بالمياه المفرقعة بفقاعاتٍ بلوريةٍ ملونةٍ كأنَّها صور مجسمه تتحرك بأيدٍ خفية، عيون تبتسم، أخرى تبكي فإذا الذكريات في نفسه كأنها أشعه بألوانٍ قرمزية والأشياء يراها بتفاصيلها قد انطبعت لحظتئذٍ في كل خلية مِن جسدِه، ازدحم ذهنه بالصور، غاب عن عالَمه وكأنه طائرٌ يرفرف بجناحية فوق داره ليرى أهله وقريته التي تركها لغرض الدراسة وتلك الشجرة هناك قابعة بأغصانِها لا تزال شامخة دوماً، لكنها نحيلة قليلة الأوراق تبكي الحروف التي نُقشت فوق ساقها لذة سنين الطفولة وآلام الفِراق، كم عاشت معنا أياماً جميلة وتغزل بها العاشقون، كانت تنتظر بشوقٍ لتشهد أول اللحظات التي اعترف بها لحبيبته بكلمةِ أحبّكِ! ونسمات الهواء النقي التي كان يستنشقها عند وقوفه على ضفافِ نهر الفرات.

بينما زوارق الصيّادين تتحرك صعوداً ضد أمواج المياه المتلاطمة تغفو قريَتهُ وسط أشجارالنخيل المتشابكة ببيوتٍ متراصة بعضها ببعض كأنها دور البابليين القُدامى بردائها الأبيض الناصع، غيوم سمراء هاربة في السماء الزرقاء فوق فُراتٍ ينبضُ بالحبِّ والإلفة، يَشطرها طريق كأنه أفعى دون رأس، أزقة ضيقة تنحدر من جسدِ الأفعى وتنتهي عُمقاً إلى أرضٍ زراعية يزداد ضجيج تثاؤبها شيئاً فشيئاً تحت أصوات الطيور المحلقة عالياً وبكاء الأطفال، جَمعٌ من النساءِ يَحملن على رؤوسِهنّ أواني لحملِ الماء، وكُنّ جميعاً ذوات أطفال متمسكين بحواشيهنّ؛ فانقطاع الماء لفترة طويلة جعل العائلة في دوامةٍ مريرة وإن الطريق التُرابي المتعرج الذي يصل إلى شاطىء النهر يضج بأصواتِ العربات الحديدية التي يدفعها أحد الشباب أو الرجال والماء يتطاير من جوانبِها والآخرين الذين لا يملكون ثمن عَرَبة حديدية يحملون قناني ماء بأيديهم والنساء على أكتافِهن حتى تَصفع شمس المغيب مؤخراتهم وتلْحس الرمال أقدامهم، ورجال كُبار السن لكنهم ذوو بنية قوية يحملون المعاول وأدوات العمل، وكأنهم من رجال القرون الوسطى، والدهُ عبد الله من بينهُم الذي يَشقى طوال اليوم لإعالة أربع بنات وأربعة أولاد، حياته شاقة جداً وسط الضجيج وقلة العمل وفقدان المُعيل، لم تكتمل فرحة العراقيين بما تداولته الألسُن في القضاء على الإقطاعيين وإعطاء الأرض لمن يزرعها وتأميم النفط وغيرها من منجزات، حتى لاحت ألسنُ من نارٍ بدخانٍ أسود تتصاعد من منخَريّ شَبح الحرب، حيث كان

لأعوام الثمانينات أثره على سكانِ قريته خاصة والعراقيين عامة، زُج فيها الكثير من الرجالِ إلى جبهاتِ القتال الدامي التَحَق ابنه حسين بالجيش تطوعًا لفَشَلهُ بالدراسةِ، كان شقيًا قد دخل في الكثيرِ من مفاتنِ الحياة بخلافِ أشقائه الآخرين وحُبهُ لحَملِ السلاح رغم رفض والده إلا إنه دخل الجيش في جبهات القتال أما الابن الثاني كان في السجلات الرسمية قتيبة وأهله يطلقون عليه علي لأن والده قد تَضَرَع لله في مرقد القديسين، إلا أنّ الأب كان يخشى أجداده الذين اختاروا هذا الاسم لاعتناقهم المذهب السُني، علي كان مجتهداً في دراسته حتى حصل على بعثةٍ إلى دولةٍ أخرى لإكمال دراسته، لكنه كان متمرداً على تقاليدِ ومعتقدات أبيه ويعتبرها لاتتلاءم مع تطورات العصر وضجر من سماعِ الأب يُردد كلمة... هذه قيّم ومبادىء وجدنا عليها أجدادك! بحث عن حقيقة ما يميل إليه والده وما يَدين به أهله عبر سنين طوال أهو تعصب لأمر يعشقونه؟! أم وجدوا آباءهم يتصرفون ويتمسكون بتقاليد دون المساس بها، أو مجرد التفكير بمناقشتها أو الرجوع إلى مراجع ومصادر معتمده، أم هي قوانين ومعتقدات وضعها أُناس أجبروهم على طاعتِها دون نقاش، يعتقد أن مناقشة والديه بهذه الأمور يشكل جريمة؟ أو ربما يتعرض إلى التجريج والخدش، ظل ساكتاً أملاً أن تجد أفكاره النور يوماً بدليل لايقبل الرفض بَيّن كالشمس المشرقة التي لاتقبل تشكيك المعاندين، حيث أنه تذكر ما قرأه عن علي الوردي: كل القدماء يصفون الدليل القوي الواضح بأنه الشمس في رابعةِ النهار ونسوا أن

الشمس نفسها على شدةِ وضوحها لاتصلح دليلاً كافيًا لدى الإنسان الأعمى.. ولكنه يعلم أن وراء هذا العالم الكبير بأرضهِ وسمائه ربٌّ يستحق العبادة لكن ليس بطريقةِ الاعتكاف التي دَأبها والداه طيلة نصف قرن بطقوسٍ لاتتفق على أقل تقدير مع جارِهم الذي يفصل بينهما سياجٍ مِن طابوق أو أقاربهم، في الضفةِ الأخرى من النهرِ أوصديقه في محافظةٍ أخرى وابن عمه الذي يسكن في دولةٍ أخرى، وأخذ يُقلد طائفة في الهند كل ذلك جعله ينظر إلى الأمور بعين مُتفحص دقيق ويقف عند كل نقطة وهو يعلم أن الله لايُعبد بطريقتهم التي اعتادوا عليها وهل عبادة جارهم هي الصحيحة؟ أم عبادة والديه؟ أم عبادة ابن عمه؟ أم صديقه كل هذه الأمور أخذت في نفسه مأخذ المتمرد على تقاليد وأعراف يعتقد بأن ليس لها أُسُسًا وقواعد متينة، راح يبني في خياله هَرماً من الأفكار التي تتصارع وتتضارب وتتفق في بعض الأحيان لكنها ظلت تُلازمه بين الحين والآخر، تذكر كلام أحد رجال الدين له عندما كان برفقة والده أثناء مشاهدته يتوضأ بطريقة غير صحيحة حسب اعتقاده لكنه لا يعتبر الغيبة والفتوى بقتلِ الناس وغيرها مُبطلة للوضوء، كانت بعض الأفعال والتصرفات التي يراها تترك أثرها في تسلخات حياته، كان كثير القراءة والتأثر بشخصيات قرأ عنها في العديد من الروايات العالمية والعربية، وما تضفي فيها روح الإنسانية والإنصاف، وقادة بثوا المحبة والعدل في بُلدانهم رغم أنهم من دياناتٍ مختلفة ولا تتفق

مع معتقدات والديه وأهل قريته، تذكر قول علي الوردي: كل أتباع ديانة أو مذهب يرون أنهم يحتكرون الحق مثلما تراه أنت.

فقد كان يرى في سيدنا علي رمز العدالة والمساواة والإنسانية ومهاتماغاندي البسيط رمزًا للثورة، ولم ينظر إلى عبادته وإنما الإنسانية التي تخلدت مع اسمه وتضفي عليه صفة الرمز الذي بقي عالقاً في وجدان كل عاقل وحرفاً مقدساً في كرّاسِ كل ساعي للحق وعامل به رغم أنه تعلم ذلك من رمز الفداء والشجاعة الحسين بن علي بن أبي طالب حتى قال: (تعلمت من الحسين أن أكون مظلوماً حتى أنتصر) ومن الثائر تشي جيفارا الذي يقول: (لكل الناس وطن يعيشون فيه، إلا نحن فلنا وطن يعيش فينا) وغيره، بدأ ينبش الكتب فكلما حاول الوصول للحقيقة تناثرت أشبه بالأوراق تتباعد عندما تمر بها الريح، شهور وسنين يدرس حتى أصبح مِن المتفوقين في مجالِ اختصاصه أما الابن الثالث أحمد بعد أن أكمل دراسته الجامعية التحق بخدمة الجيش الإجبارية والتي تزامنت مع الحرب فكانا الأخوان في جبهات القتال أما الابن الرابع عُمر فكان محباً للعمل كارهاً للدراسة.

أصابع من مطرٍ بدأت تعزف موسيقى كموسيقى الجاز على بقع الماء المتجمعة من مياه الأمطار، رذاذها يتقافز على بنطاله، أحس ببرودةٍ تصعد إلى أعلى رأسه، واقفًا كأنه جسد لا روح فيه والدنيا حوله قد رقدت في قطرةِ الماء الساقطة عليه قشعريرة جعلت من جسدِه يَتَنْمّل من البردِ، فكّر في نفسِه أن يرجع إلى شقتِه التي استأجرها لكنه شعر بما يشعر به الإنسان الغريب الذي فجأة يجد نفسه في حفرةٍ مليئة بالأفاعي والعقارب دوامة مريرة جعلته يفضل البقاء تحت المطر دون الاستسلام إلى حبالِ العزلة الخانقة، يتنفس نسمات الهواء التي تُلامس خصال شَعْره.

في تلك الأثناء أخذت الرياح تُشاكس أغصان الشجر، سقطت إحدى الأغصان ملوحة بأطرافِها بالأرضِ وجزؤها الأخر لازال ينتصب شامخاً.

أصوات من بعيدٍ لكلابٍ سائبة كأنها تحاول الافتراس، قطع أنفاسه وزمّ شَفتيه جمع كُل أحاسيسه وصبها في أُذنيه وقف جامداً كالأداة، كجذعِ نخلة بلا رأس وموجات الصوت تقترب منه شيئاً فشيئاً، لم يرَ أي شيء سوى حركة لأغصانِ الشجر، يا إلهي ما هذا! شَبح حيوان مفترس فرك عينيه بباطنِ يديه لكنه لم يبصر سوى الظلام الذي يسوره من كل جانب، كأن عينيه تشعان أضواء أو كشهبٍ تتقاذف في ليلٍ دامس.

انزاحت تلك الصور من مخيلته إثر صوتٍ تَسَلل إلى مَسامعه، أطال التحديق لمح جَسداً يسقط على الأرضِ وينهض ببطء، جَف ريقه، خوف

يحتويه بالتدريج، رفع قدمه إلى الأمامِ خطوتين، توقف برهة، رجع إلى الخلفِ كان منظرًا مخيفاً يئن في رأسِه.

فكر في نفسِه أن يترك المكان ويذهب إلى شقتِه بسرعةٍ، سمع تنهداً عالياً ووقع أقدام، صوت الكلاب قد اختفى سوى صرخة لن يستطيع تمييزها، ارتعب، حاول الهرب بعيداً لكن الصوت بدأ يقترب منه بحركاتٍ غير منتظمة والشعْر الطويل يخفي الوجه تماماً...

يا إلهي ما هذا! بدأت تقترب أكثر وتطلق أصواتًا مفزعة، أهذا نحيب؟! لا هو بكاء! أم ضحك مختلط بصراخ!

يا إلهي من هذه أُنْسية أم جنْيّة؟!

اندلعت نيران الحرب بين دولتين متجاورتين العراق وإيران بشرارةٍ أوقدها المستفيدين من تُجارِ المعارك بصفقاتٍ لبيعِ السلاح للطرفين والمؤونة والعتاد، والتي لم يكتوِ بلهيبها إلا النّساء فالرّجالِ صرعى الحرب... ينتظرون كل طرف منهم النصر على الطرف الآخر ولا ينظرون هل تلتحف الأرملة في فراشِها النصر؟! وما بال اليتيم إذا جاعَ أو تشرّد هل يُقدم له النصر لقمة خُبز يَسدُ بها رَمَقه! ...

وإذا حَزن أو تذكر أبيه مَن يَمسح على رأسِه! النصر أم يكتفي النصر بشعاراتٍ مُزيفة للحرية والديمقراطية أم يقضي أيامه بمضاجعةِ الدنانير

والنّساء ويترك الثكالى بين أنين واشتياق، حتى ينبت في شَفتيها شارب الرجال تخشى حتى النظر إلى المرآةِ خوفاً من اتهامها بالزنى... لكل شيء ثمن فإن ثمن النصر الذي يُنادون فيه هو سِرب من الأيتام دون مُعيل، فقد قرأ والده عبد الله عن توماس جفرسون (النصر والهزيمة يكلفان نفس الثمن) وأن هذا القول يتفق مع واقع حال كل الدول التي خرجت من الحروب منتصرة أم خاسرة فإن ما تخلفه الحروب من دمار في كل الميادين الاقتصادية والاجتماعية التي لها آثار سلبية نفسية تلحق الأيتام والأرامل وما يلتصق بهم من ألم طوال حياتهم، وهذا ما اطلع عليه في أحد الجرائد التي تصدر يوميًا بإحدى الصفحات عن كريم الشاذلي (الألم هو الثمن الذي يجب أن نستعد لدفعه دائماً.. ثمن النصر والشرف والحياة الكريمة) .

-يا إلهي ماهذا حيوان أم إنسان! أراه يتمايل كأنه شبح.

عندما حاول الهرب ناديت عليه بصوتٍ ناعم، اندهشَ، اقتربت منه باكية خائفة مِن شيءٍ لا يعرفه، شَعْرها يتدلى على وجهِها وثوبها الأحمر المُمزق يغطي نصف جسدها، الدماء تسيل مِن قدميها عن جروحٍ واضحة، نظر إليها بعينين قلقتين خائفتين، تتمايل لا تستطيع الوقوف سقطت جواره كان جمالها فاتن رغم الطين الممزوج مع بَشرتها بعث جسدها عطراً إنثوياً جذاباً مختلط مع رائحةِ الطين والخمرة، حدثها بارتباكٍ.....

-آنسه ماذا جرى لك؟

كانت نبضات قلبها تتسارع وتأن أنيناً متقطعاً، دموعها انهمَرت بغزارةٍ حتى اختلطت مع ماء المطر، لم ترد عليه...

- يا أختي هل أنت خائفة من شيء؟

لم يسمع صوتها وكأنها غريق قد رماه الموج إلى رمالِ الشاطئ في آخرِ أنفاسه نَظَر حوله لم يشاهد أي شخص يجري خلفها، وكأنها نزلت مع قطرات المطر من السحب السوداء الداكنة، أو أن الليل لَفَظَها من عتمَتِه إلى طريقٍ مجهول.

بدأت الرياح تتحول إلى شماليةٍ تضم في طياتِها زخات مطر سريعة عند ذلك حملها بين ذراعيه كان شعْرها يتدلى مِن جهةٍ وساقيها العاريتين يمتطيان على ساعديه أحس بحرارةِ جسدها تدخلُ إلى أعماقِ روحه رغم ثقل بدنها وطولها المعتدل شيء لذيذ قد تسرب إلى قلبه أزال حُبيبات الألم التي انغرَست في باطنِ قلبه، وريحُ أنفاسها أذاب حيوانه الخامد، سار بهدوءٍ وسط الوحل، الأمطار تغطيه من كِل جانب دخل البوابة، اعتلى السلالم وبين فينةٍ وأخرى ينظرُ إلى شَفتيها الشاحبتين وعينيها الغائرتين وإلى صدرِها الذي يرتفع وينخفض مع الشهيق والزفير لكنها كانت قد فقدت الوعي ولا تدرك ما حولها وصل إلى شقتِه أدار تفاحة الباب بمرفقه، توجه بها إلى سَريرِ نومه، بحث عن موادٍ مُعقمةٍ فوجدها في صندوق صغير عليه علامة الهلال، مَسحَ الدماء مِن قَدميها البيضاويتين وجفف جروح ذراعيها

الرقيقتين، وبقايا الطين العالق بهما، ارتَبَكَ كأنه شخصٌ ينقذُ امرأة عارية من الغرق، وضع عليها غطاءه السميك المرسوم عليه طائر الطاووس، جلس بالقربِ منها على كرسي الدراسة وأمامه منضده، وضع مرفقيه على ساقيه وباطن يده تحت ذقنه.

كلمة يداورها وتداوره حتى أخذته بعيداً وعيناه كقطعِ جليدٍ متحجر كانت تلك الفتاة جميلة جداً لكن كلمات أبيه وحكاياته آنذاك قِراط في أُذنيه وجرس الكنائس كأنه يطرق في رأسِه حكايات كثيرة في الليلِ البارد الطويل يسردها لهم أبوه عبد الله، يتحدث عن العفة والشهامة وحفظ الأعراض، وعن العدل والمساواة التي فُقدت بهذا الزمان ويكرر لهم قول علي الوردي (إن دين المساواة الذي جاء به محمد بن عبد الله دفن مع علي بن أبي طالب في قبره).

بقيت في فراشِه وجسدها يتلألأ بياضاً كأنه لؤلؤةً رماها المحار، صدرها يرتفع وينخفض، حدق إليها لكن شباك الضمير بدت تنسج أمام عينيه صورة شقيقاته اللائي ترَكهنَ وذهب، ترك الكرسي وأخذ الغطاء، سحبه على وجهها بعد أن طال النظر إلى عينيها المغمضتين الرقيقتين اللتين كانتا تنضحْنَ عذوبة ومودة لكن يجتمع فيهما حزن وخوف، لحظات تخيل فيها أمهُ ساعتئذ لو خُير أن يملك العالم بأسره وبين أن يرمي نفسه بين

أحضانها ليشم عطرها ما تراجع عن ذلك لكن رائحة الخمرة التي تفوح منها التَهَمت تلك الصورة الجميلة التي سرعان ما تحولت إلى سحابةٍ سوداء يُصاحبها برقٌ ورعدٌ تَضربُ جسده، نَظر إلى كتبِهُ المُرتبة فوق المنضدة الخشبية، فتح الكتاب الذي أمامه عشوائيًا وقع بصره على إحدى الصفحات، قرأ العنوان ((اتفاقية حقوق الإنسان)) أطبق الكتاب بقوةٍ وقال في نفسه:

-أين حقوق الإنسان؟

أشار بيده إلى تلك الفتاة النائمة أمامه.

أين الإنسانية؟ آه! إني أتكلم عن الإنسانيةِ ولا أعرف هل النائمة أمامي جانية أم مجني عليها؟ يا ترى قد تكون مرتكبة جريمة وهاربة من وجه العدالة أو قتلت زوجها؟ أو سارقة؟ أو زانية؟ أو خائنه؟ أو... أو...

بدأ يضرب رأسه بباطنِ كفيه يا إلهي ما هذه المصيبة لو لم أخرج في تلك الليلة لما حَدث لي كل هذا، سوف تسبب لي المتاعب والمشاكل أو ربما أهل المقتول قد يتهمونني بالإشتراك معها.

كانت الأفكار تجتره وهو يجترها ودوار في رأسِه، وآلام المعدة وكأنه يريد أن يتقيّأ الكلمات التي جثمت على صدرِه؛ فالدنيا حوله توقفت إلى حدودِ الغرفة التي تصرخ عليه أشباحها من كل جانب.

أحس بالبردِ يغزو جسده، وضع معطفه على كتفه ورأسه يغوص بين كتفيه سمع صوت خارج الغرفة، دَبَ الخوف في نفسِه كدبيب النمل في شراييِنه نهض ملتحف المعطف الصوفي الطويل وتوجه إلى الباب تردد:

- ربما أحد الأشخاص الذين يتبعون الفتاة قد شاهدني عندما كنت أحملها وحضروا الآن ليقتصوا مني؟

وربما أحد الجيران قد رآني؟

سوف تكون فضيحة دون مبرر أو ذنب! لا! ثم لا! إنها الإنسانية التي تؤمن بها.. آه ماذا أفعل! ألم تُعاهد نفسك على أن تكون إنساناً!

قدماه ترتعشان مِن الخوفِ والخجل لكن الصوت ازداد، اضطر لفتح الباب، أدار تفاحته، تفاجأ بقطةٍ سوداء تقفزُ أمامه بموائِها المستعطف، تنفس الصعداء، عاد الدم إلى عروقِه، رجع إلى غرفته مسرعًا، نظر إليها فضوء المصباح قد اختلط مع شعْرِها الأشقر وأخذ من وجنتيها المتوردتين لَمعته وزهوه، غصة الألم والحيرة سَلَبت لُبَّ عَقْله، رمى جسده على الكرسي، وضع رأسه على حافته وكوره تحت المعطف.

بزوغ الفجر يلوّح بأصابعِه الفضية التي تُدغدغ أغصان الشجر وزقزقت العصافير مبتهجة بيومٍ معتدل، لم توقظه إلا أولى خيوط الشمس تَجرحُ عينيه ويتزاحم نورها في حلقاتِ شَعْرهُ الطائشة وتملأ أرجاء الغرفة دفئاً وحياة، أحس بثقلِ جسده وآلام في رقبتِه وقدميه، خلع معطفه، كان ينتظر في كلِ لحظةٍ قدوم من يطالب بها أو حضور الشرطة بحثاً عنها أو معرفة الجيران بأمره، خاصةً وأن ابن عبد المجيد المصري الذي يسكن مع

عائلته بجوار شقته كان كثير التردد عليه يسأله عن أحوال العراق ليتنفس عطر والده الذي ترك مصر وذهب لإيجاد فرصة عمل، ويظن بأنه يعرف كل بقعة في أرض العراق ويعرف كل شخص فيه.

طُرقت الباب بقوةٍ، ارتعش جسده، ارتبك، أصابه الفزع تمنى لو أن الأرْض قد بلعته إلى أعماقها أو موجة في البحرِ أخذته إلى أفواه الحيتان، حَسَ بظمأ أفكاره، أرهَقَته، هرول إلى الغرفةِ، سحب الغطاء، غطى كل جسدِها حتى لا تبان، حدّث نفسه:

- أي حماقة هذه إنهم سيتبينون أمري عاجلاً أم آجلاً؟

كل شيء واضح ارتباكي الذي لا أستطيع إخفاءه وحالتها التي جاءت بها

بدأ الباب يرتج من شدةِ الطرق... ترى من يكون الطارق يا إلهي؟

بعد أن هَبت ريح عاصفة من تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والديون المُثقلة بها دوّلة مِصر اضطر العديد من العاطلين عن العمل والخريجين ترك بلدهم بهجرةٍ جماعية إلى العراقِ لغرض الحصول على فرصةِ عمل، وحاجة العراق إلى أيدٍ عاملة لالتحاق الرجال من المواليد المحددة جبرًا في الجيشِ بدوراتٍ سريعة، ومن ثم الزج في المعاركِ الطاحنة وكذلك خريجي المعاهد والكليات وغيرهم يلتحقون بالجيش عند التخرج لذلك كان البلد بحاجة إلى أيدٍ عاملة تغطي كل متطلبات المواطنين؛ فأصبح في كل

ميدان عمل مصري يعمل وتزامن ذلك مع حُبّ العراقيين للمصريين واحترامهم حيث كان الكثير منا يظن بأن أي مصري هو قريب أو على معرفة بالفنانين المصريين الذين كانوا يمثلون كل البطولات بالأفلام مثل فريد الشوقي وعادل أدهم وتوفيق الدقن ومحمود المليجي وإسماعيل ياسين وسعاد حسني وميرفت أمين وسمير غانم ونجلاء فتحي، وغيرهم، حيث أكثر ما تعرضه القنوات العراقية هي أفلام مصرية كانت تعرض كل يوم جمعة عصرًا في مرحلة انعدم فيها (الستلايت) والموبايل، وحصر القنوات التلفزيونية وحتى الأفلام والمسلسلات كانت قليلة جداً ومحصورة بالمصري والعراقي وحبهم وتعاطفهم مع المصريين وكان عبد المجيد من ضمن المُسافرين إلى العراق حيث أن عائلته تسكن بالشقة المجاورة لشقته قد تلقت صباح هذا اليوم رسالة من زوجها عبد المجيد، فرحت زوجته وأولادها عبد السميع وعبد الباسط فرحاً كبيرًا كانوا باشتياقٍ لسماعِ أخبار والدهم، أزالت زوجته الطابع العراقي من الظرف وأخرجت الورقة...

ونص الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليك يا زوجتي الغالية وعلى ولدي عبد السميع وعبد الباسط أنتم قطعة من كبدي وعيوني التي أبصر بها الوجود إن الغربة صعبه جدًا ولكن

صورتكم التي لا تفارق خيالي أبداً هي التي تهون عليّ شدة الفراق وابتسامتكم الجميلة تطل عليّ في كل الأوقات وحركاتكم ومزاحكم

وطعام والدتكم الطيبة تنسدل أمام عيوني كنسمات باردة عذبه وإني أتذكر كل مكان كنا سوية نذهب إليه كشرم الشيخ وكوبري والزمالك وشارع محمد علي، إني مشتاق لرؤيتكم ورؤية مصر الحبيبة إن الفراق صعب ولكن لقمة العيش تتطلب منا التضحية يا حياتي، وإني في العراق جمعت مبلغاً من المال وإنّ الناس هناك متعاونون وظرفاء مع كل المصريين بأخلاق عاليةٍ حتى في إحدى المرات كنت أحمل الفأس في البناء ووقع مني وأصاب قدمي وتركت العمل، أعطوني كامل الأجرة لا تقلقوا فإن الإصابة بسيطة، وكذلك صدر قرار من الحكومة يساوي المصري بالعراقي وأمور كثيرة سوف أخبركم بها عند رجوعي إلى بلدي العزيز وأخيرًا أوصيك بنفسك وأولادك يامن هجرت دياري من أجلها حبيبتي.

عبد المجيد دسوقي

أعادت نفيسة الورقة إلى الظرف وأجهشت بالبكاءِ، ضمت رأسها بين ساقيها وعبد السميع الابن الأكبر سنة قال لها:

- يا أمي إن أبي بخير وسوف يعود إلينا بعد أن يجمع المال ليشتري لنا داراً وسيارة

- يا عبد السميع لا تشغل بالك أنا بخير.

كانت زوجته شديدة الولع والاشتياق إلى دفءِ مشاعر زوجها فحياتهم بسيطة إلى حدِ التقشف وعبد السميع الابن الأكبر لايلح على والدته في طلبِ الحاجيات فملابسِ العام الماضي يرتديها في عامه الجديد السنين الماضية ثقيلة قد تركت أثرها على ورقةِ حياتهم اليومية والأعباء المالية في

ظل ظروف صعبة جدًا بحيث اضطر العديد من المصريين ترك بلدهم من أجل توفير لقمة عيش أملهم أن يجدوها في أرْض السواد.....

يزداد الطرق على البابِ بشدةٍ، وكأنها سوف تخلع من مكانِها، توجه لفتحها، تردد، هرول إلى السلالمِ، صعد إلى السطحِ تاركاً الفتاة نائمة في فراشِه حاول الاختباء أو فعل أي شيء، تسلق الجدار، همَّ بالقفزِ إلى الشقةِ المجاورة لشقته لكن تذكر في النهايةِ إن الشقة مسجله باسمه في عقدِ الإيجار ولا فائدة من الهروب نزل السلالم:

- سوف أقول لهم الحقيقة؟ لكن سيجدون الدليل في شقتي ولا يوجد عندي أي شاهد يبرئني، وربما تقول إنه شريكي في الجريمة؟ أو تقول إنه عشيقي ودليلهم إنها نائمة في فراشي؟ يا إلهي ما هذه المصيبة التي حلت عليَّ ومهما قدمت لهم الأعذار سوف يقولون لي إن القانون لا يحمي المغفلين؟

-آه.. لو سكنت مع باقي الطلبة في نفس الشقة لكان الأمر يهمنا جميعاً..

لكن سوف أقول لهم الحقيقة بكل تفاصيلها! يا أحمق هل تعرف عنها شيئاً، هي كانت مخمورة ولا تتذكر شيء سوى وجودها مَلقيه على فراشك؟

لكنه قرر في نهايةِ الأمر أن يفتح الباب، اقتَرَب ويديه ترتعشان وقدماه لا يسعفانه في حملِ جسده، أدار تفاحة الباب...

عبد المجيد المصري كان يخرج مِن الصباح الباكر ليمر في شوارع بغداد يُحدقُ في البناياتِ الشامخة والأسواق المُمتلئة بالبضائع والعطور التي تنفذ إليه مِن النافذةِ الزجاجية الشفافة للباص ونسمات الهواء البارد العذب تعطيه حيوية ونشاط كانت الشوارع مكتظة بالطلبة والطالبات بزيهم الجامعي الأنيق كل ذلك زاده بهجة وسرور، كل شيء جميل في بغدادِ الطمأنينة والاستقرار والهدوء وانخفاض الأسعار، وصل إلى مكانِ العمل الذي يُسمى (المَسطر) الذي يقع في منطقة (الوشاش) رغم بعده عن الفندق الذي يسكن فيه لكنه يقع في منطقه يتسم أهلها بالثراء ومن الشخصيات الغنية الذين قد يغدقون عليه بالأجرة المناسبة، التقى بأبناءِ جِلْدَته، تبادل معهم السلام والقُبْلات وكأنه قد تنفس منهم رائحة بلده وأهله الذين فارقهم بمرارةٍ وفي تلك الأثناء حضرت سيده متوسطة العمر ترتدي ملابس سوداء وتغطي جسدها بعباءةٍ سوداء التي تشتهر بارتداءها النساء العراقيات، سلمت على العمالِ كان عبد المجيد يتوسطهم وهو رجل حنطي مربوع يُبان في وجهه الابتسامة أشارت إليه وأخبرته عن حاجتها إلى بَنّاءٍ وعُمال لغرض ترميم القسم العلوي من دارِها، استأجرت لهم سيارة عند الأتفاق معهم تحركت السيارة بسائقِها السمين الذي يتدلى لحم رقبته ورأسه يغوص بين كتفيه ويتفصد الدم في وجهه، أدار المذياع وإذا بصوتِ المطرب العراقي يوسف عمر يُقَطع كلامه في إحدى المقامات البغدادية ب (يلي أوكعت بالبير ناوشني إصبعك لولا حجاي الناس لأنزل وأطلعك)،

عبد المجيد ينظر إلى جهتي الشارع ويحَدق في تمثالِ (أبي جعفر المنصور) تذكر إنه قرأ عن هذه الشخصية في التأريخ، حدث نفسه: اليوم تمثال وفي الماضي هو الخليفة العباسي الثاني مِن الخلفاءِ العباسيين، يقولون إنه بنى بغداد وحدد مداخلها وطرقها يا ترى هل كان عادلاً مع أبناءِ رعيته ويحسن إليهم؟ أم كان قاسي القلب جباراً يلهو بعيداً عن همومِ الشعب؟ وهل يشبه رئيسهم الحالي المُعلقة صوره في كل مكان؟ إن هذه الأمور أكيد أهل بغداد والعراقيين يعرفونها جيداً كما يقول المثل أهل مكة أعرف بشعابِها، وهل مثل رئيسنا المُعلقة صورته في كل مكان وفي الدوائر والمطارات وبأجمل مظهر بقصورٍ فاخرة ونحن أولاد الغلابة قد كُتب علينا ترك أولادنا وزيجاتنا والهجرة إلى العراق من أجل لقمة العيش.. آه يا بلدي كم مشتاق إلى لَمسةِ ترابك بيدي! الهواء له عطر مميز، الشمس والقمر لهما آلاف القصص وكم عاشقٍ سَهر الليالي يتغزل بحبيبته ويصفها مرةً بالقمر ومرةً يُباهي بها ضوء الشمس فهما عند طَلّتهما متشابهان بذلك النور الذي يخطف القلوب، أما الشمس فإنها تختلف عن شمس بلادي، لا يا قلبي لا تتحسر فقد ذاق قبلك ألم الفراق حتى جَعل لها أهل الجاهلية إلهٌ يُدعى بعْل الذي عبدته قبائل عربية متعددة وتسمّت به كعبد الشمس وامرئ الشمس وصار من الأصنام المعبودة عندهم وتغنى بها الشاعر أبو العلاء المعري:

يَجوزُ أَن تُطفَأَ الشَمسُ الَّتي وَقّدَت

مِن عَهدِ عادٍ وَأَذكى نارَها المَلِكُ
فَإِن خَبَت في طَوالِ الدَهرِ حُمرَتُها
فَلا مَحالَةَ مِن أَن يُنقَضَ الفَلَكُ

وكذلك بدر شاكر السياب فقال: الشمس أجمل في بلادي من سواها، والظلام حتى الظلام هناك أجمل...

قطع سلسلة أفكاره كلام السائق.

- وصلنا تفضلوا.

نزلوا جميعاً من السيارةِ بعد أن أعطت الأجرة أم جرجيس وهي زوجة الشهيد العقيد عبد الغفار عبد الرؤوف الذي كان ضابط في الجيشِ العراقي واستشهد أبان الحرب العراقية الإيرانية فإن ماحصلت عليه زوجته من أموالٍ ورواتب تكفي للبناء وحتى شراء سيارة لكن كل الأموال والرواتب لا تعوض لحظة لقاء بين زوجين في فراش واحد وكانت أم جرجيس تتقدمهم وساروا حتى وصلوا الدار وأشارت إلى أماكن الترميم.

زوجة عبد المجيد المصري التي ذاقت مرارة العيش وعسر الحال وفراق زوجها الذي تركهم في أمس الحاجة إلى لقمةِ العيش لكن الظروف كانت أقوى من أن يبقى في بلده الذي تسوده البطالة والفقر والحرمان فقد ضحى بنفسه وخرج وهو لايملك سوى أجرة السفر مما اضطرها إلى العمل في

الخدمة بأحد الدور مع عائلة أبو محمد الجزّار التي تتسم بالرفاهية بغية توفير الحاجات الضرورية لأولادها واستمرار العيش في ظل أوضاع مالية واجتماعية واقتصادية صعبة يمر بها البلد حتى عودة زوجها كانت الخدمة في تلك الدار صعبة تحت الذل والإهانة وعدم الاكتراث إلا إنها كانت مضطره لتحمل كل الصعاب لكي تتخطى المرحلة الحرجة من حياتها إلا إنها قد تعرضت إلى مُضايقات عديدة من أبو محمد الجزّار عندما تكون زوجته خارج الدار لكنها كانت تَصده في كل مرة وتخبره بأنها وفية لزوجها الذي ذهب إلى الخارج من أجل لقمة العيش، وترجع إلى دارها والدموع قد أخذت مأخذها من وجنتيها لكنها سرعان ما تقوم بغسل وجهها حتى لا يلاحظ أولاده أي شيء.

استمر الطرق على الباب، وضع يده على تفاحةِ الباب، ارتعش، حرك أنامله وأدارها، هبّ بوجه:

- صباح الخير يـا سيدي لقد جلبت لك الصمون كما طلبت مني.

لم يستطيع أن يرد عليه من الرهبةِ وكأنه يسير في الظلام ويفاجأ بحيوانِ مفترس من خلفه، نسي في تلك اللحظات إنه كان قد كلف صاحب الفرن أن يجلب له الصمون.

- صباح ال..... خير شكراً سأجلب لك النقود.

استنشق الهواء بأنفاسِ عميقة يملأ صدره كالغريقِ الذي تعلق في آخرِ أنفاسه بأطرافِ شجرةٍ على الشاطئ وسرعان ما عادت دقات قلبه إلى حالتِها الطبيعية ودمه يدب في عروقِه، أحضر محفظته، أخرج منها بعض الجنيهات وأعطاها له مع (بقشيش)، أغلق الباب خلفه، رمى جسَدَه المنهك على السريرِ.

ضباب كثيّف يُغطيها من كل جانب نظرت يميناً ويساراً أصوات غريبة، تسير ببطء وكأن قدميها لا تقع على الأرض، اقترب منها ببزّته العسكرية يخفي شيء لم تستطيع تميّزه، هَربت مرعوبة بين هياكل الأبنية القديمة وكأنها في مدينةِ للأشباح، تنظر إلى قدميها وكأنها واقفة في مكانها كلما أسرع لم تتقدم، تلهث كفأرٍ قد وقعت علية قُرعة الفوز لأحد النسور وهو يقترب منها، تسلقت السلالم بثوبها الأبيض الطويل وشعرها المتناثر على وجهها حتى وجدت نفسها فوق البناية العالية، نظرت إلى الأسفل كانت الدور المهجور تصرخ عليها من كل جانب، نظرت إلى وجهه البشع فكلما اقترب منها كلما تغير وجهه حتى بدا لها قرد، خنزير، فرس نهر، أفعى برؤوس نارية، رمت نفسها... نادت أمي أمي أمي !

سقطت من سريرِها كان حلمٌ مفزعاً مخيفاً، أخذت تتلمس رقبتها بيديها وتنظر إلى جسدها، كابوس قاتل ينم عن ضطرابات نفسيه ومعوية حادة.

بينما هو قضى ليلته فزعاً قد أخذ سلطان التعب والإرهاق بجتره إلى نوم عميقٍ رأسه على حافة الكرسي وساقيه ممدودتين يضع معطفه على صدرِه، آخر ما تذكرته عندما كانت بين أحضان رجل لا تعرف عنه أي شيء، نهضت مِن فراشِها، نظرت إلى ملابسِها المُمَزقة وأثر الجروح على ساقيها، خرجت من الغرفةِ، اندهشت عندما رأته نائماً، حدقت به، شاب طويل أدعج العينين أسمر إن ذلك الشاب جعلها تعيد شريط ذكرياتها...

أمام تلك الباب من الخشب العاج والنقوش الفرعونية التي تُزينيها ضغطت أمها بإبهامها على الجرسِ، تفاجأت بشابٍ جميل مياه النعيم تجري في وجنتيه يفتح الباب، يرتدي الملابس الرياضية، دق قلبها لأول مرةٍ إلا أنها لم تعد قادرة بعد النظر إليه، خفضت بصرها، حاولت أن تنظر إلى يديها وتعبث بأناملها أُنثى جميلة عينيها واسعتين ساحرتين وشعْرها يتألق في أشعة الشمس كأنه خيوط من ذهب على سجيتها كأنها قطعة خضراء وسط جزيرة في البحر، هو لقاؤها الأول معه عندما كانت مع أمها، دخلت الدار ونَظراتهُ تلاحقها.

حرقة الجروح في ساقيِها قد سلَخت تينك الذكريات التي ضجت في فؤادِها، أعادت النظر إليه وهو نائم، توجهت إلى الحمامِ بعد أن بحثت عنه، استحمت بماء دافئ أزال مِن جَسدِها المثقل بالهمومِ ترسبات الزمان القذرة، أحست بالنشوةِ، نظرت إلى أركانِ الحمام وجدت سروالاً أبيض وقميصاً نصف كمّ، تركت ثوبها الممزق وارتدتهن، غريزة الجوع قَبَضت على معدتِها، توجهت

إلى الثلاجة، أتمت الطهي وإعداد القهوة، وضعت كل شيء بالتنسيقِ على مائدة الطعام، اقتربت منه وشعْرها المبلول يتدلى على وجنتيها المنتفختين المتوردتين، لمسته بأناملِها، نادته:

_ صباح الخير... صباح الخير.

رفع رأسهُ، فَركَ عينيه براحة يديه، دفع صدره إلى الأمام، اندهش مفزوعًا.

- صباح الخير هل أنت بخير؟

كان وجهُها يتلألأ كأنها فتاة أخرى غير التي رآها في الليلةِ الماضية.

- أنا بخير... الحمد لله... أشكرك.

الأفكار بدأت تجتره مِن جديد والخوف عاد إلى قلبِه.

- يا آنسة.

كان يود أن يكمل كلامه لكنها سبقته بالحديث.

- أرجوك يا أخي دعنا نفطر فإني أعددت الطعام على الطاولةِ وهو ساخن.

بدآ يقضمان قطع الصمون المختلطة بالزبدة والمربى بتلذذٍ والصمت والخوف والارتباك وهو يتحدون مع خيوط ودوائر البخار المتصاعدة مِن أكوابِ الشاي، قطع الصمت بتنحنح:

- أنت جميلة جداً ولكن ..!

قاطعته، خفضت عيناها ناظرة إلى يديها.

شقيقه حسين في العراق قد ذاق ضَرعًا من تصرفاتِ مراتب الضباط الذين كان بأمرتهم بالإضافة إلى عُسرِ الحال حيث إن راتبه الشهري لايكفي مما

اضطره الهروب من الجيشِ لاعتقاده بأن الحرب لامعنى لها وإنما فقط استنزاف قوى الشباب والمقدرات المالية للبلد، كانت دور الهاربين وما يُسمونهم (افرارية) تتعرض دائماً للتفتيش من قبل أعوان النظام حتى تكون عائلة الهارب على أهبة الاستعداد وتتوقع في أي وقت الدخول إلى الدار حتى في الليل أو الفجر أو وقت الظهيرة صيفًا دون مرعاة حقوق العائلة التي كانت منعدمه ويتم تفتيش غرفة غرفة حتى لو كانت النّساء دون حجاب ويقتادون أي شخص من أفراد العائلة لغرض أخذ التعهد منه بإحضار الهارب لكن جاره أبو محمود كان يتعاطف مع الهاربين خوفاً أو مجاملة في بعض الأحيان فيقوم بإخبارِهم بوقتِ حضور أفراد الشرطة والجيش وأعضاء الحزب بما يسمى آنذاك (كَبْسة) فيتمكنون من الهرب إلى البساتين وشواطىء القصب والبردي وفي التلال القريبة من القرية.

حتى ابتدعوا شتى الطرق للتملص من الالتحاق إلى وحداتهم العسكرية فإن الكثير من أصدقائهِ قاموا بكسر أيديهم بحجر كبير حتى يحصلوا على إجازة، أو تقديم شهادة وفاة لأي شخص من المنطقة ويدّعون بأنه أحد المقربين لهم حتى لا يلتحقون إلى ساحات القتال التي دارت ومضى منها وقت طويل دون أن يعرفوا سبب المعركة ولماذا هم يُجبرون على القتال وعلى أي مبدأ، مما حَدا بنّساءِ القرية الذهاب إلى مرقد أحد القديسين للتَضرع لله حتى لا ينال أبنائهنَّ بطش الطاغية وأعوانه...

بعد أن أكملا فطورهما خيم الصمت مِن جديد يخفي وراء الأهداب حيِرة وكأنه يلتصق التصاقاً مع ذرات الضوء النافذة من أعالي الثقوب، خفضت عينيها الناعستين ودعكت أرنبة أنفها كانت تعابير وجهها توحيّ عن خجلٍ، رفعت رأسها، حدقت في عينيه:

- إني لم أتعرف على اسمك.

- أنا علي العراقي طالب ماجستير في القانون حصلت على بعثة إلى بلدكم لإكمال دراستي.

- ما شاء الله اللّٰهُمَّ يسهل عليك ويردك إلى أهلك وبلدك سالم.

- شكراً

- وأنا نادية كنت في تلك الليلة التي وجدتني فيها هاربة من...

قاطعها ورفع يده أمام وجهها إثر أصوات وصياح في العمارةِ التي يسكن فيها، وضَع رأسه على الباب ليسمع ماذا حدث، أحاديث بصوتٍ مرتفع من نّساء ورجال، قطع أنفاسه، فهمَ من خلال كلامهم بأن هناك شخص مقتول بالشقةِ أسفل العمارة، ارتعدت فرائصه، نظر إلى الفتاة وسألها بخوف هل لك علاقة بحادثِ القتل؟ سكَتت، نَفَشَ شَعْره وقال يا ويلتي ما هذه المصيبة!

-كيف قتلتيه ولماذا؟

-لم أقتله وليس لي أية علاقة.

-أرجوكِ لا تكذبي عليَّ.

-أقسم بالله لا أعرف عن الحادث أي شيء.

لم يصدق كلامها وبقي بين الشك والحيرة والقلق، بقي متجمداً عند الباب بعد أن أحكم القفل ليستمع ماذا سيحصل وهل يتم التفتيش في شقته؟ وإذا عَثروا على الفتاةِ ماذا يقول لهم، ارتَعَش خوفاً من الفضيحة التي لاذنب له فيها سوى دافع الإنسانية.

بعد ساعة من القلق والحيرة سَمَع صوت منبه سيارات الشرطة وهي تقترب من العماره التي يسكن فيها، طلب من الفتاةِ أن تجد مكاناً في الشقة تختفي فيها من أنظار الشرطة إذا دخلوا للتفتيش في شقق العمارة بحثاً عن القاتل، وَقع أقدام يقترب من شقتِه بأصواتٍ عالية، جَلَسَ على الأرضِ ينتظر لحظة اقتياده للسجن للتحقيق معه عن سبب وجود تلك الفتاة المخمورة وهل لهما علاقة بالحادث، بدأ يفكر كيف يرد عند استجوابه! وكيف يقنعهم بوجهةِ نظره وحقيقة الأمر! وهل إن الفتاة التي وجدها كانت تسكن نفس العمارة؟ وهل أن المقتول تربطه علاقة زوجية أم هي من محارمه؟ أم سوف تقول بأنه شريكي.. أخذ يذرع الشقة جيئةً وذهابًا، أخفى الفتاة في كنتورِ غرفته، ارتفعت الأصوات بالقرب من باب شقته، صَمَت وبدأ يسير ببطء حتى وضع رأسه على الباب يسترق السمع، صَرخ أحد أفراد الشرطة أين هي! إذاً فتشوا كل مكان في العمارةِ!...

كانت عائلة علي في بابل (الحِلّة) تعيش حالة قلق وخوف مستمر لهروب شقيقه حسين من الجيش وتعرضهم للتفتيش في أوقات لايتوقعوها بالإضافة إلى عُسرِ الحال ولم يسلم من بطشِ الطاغية وأعوانه الإسلاميين ولا الشيوعيين ولا المستقلين ولا المثقفين ولا الأدباء الذين يهمسون بينهم بالسرِ ويخفون ما يكتبون وتعرضوا للجلد والتعذيب وتصدر القافلة الأدباء والشعراء المرتزقة والمثقفين المتملقين وتحول الشعر والغناء مديحاً للطاغية وأبنائه حيث كانوا واجهتهم الإعلامية والبوق الذي يلهج بذكرهم في كل محفل كما كان ذلك في كل العصور فقد مَدح الشعراء الجاهلية كالنّابغة الذبياني الذي كان يوصف بشاعر البلاط بتكسبه واعتذاره وشاعر السياسة والدهاء في تلونه وتقلبه بين إمارة الحيرة وغسان ولغزارة شعره ولنبوغه سمي النابغة كمدحه للغساسنة بقوله فيهم:

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

مجلتهم ذات الإله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب

وجرير والفرزدق وأبو نوّاس وحتى المتنبي قد ذكر في مدح علي بن أبي الهيجاء (سيف الدولة الحمداني) حيث قال:

عَلَى قَدْرِ أهلِ العَزمِ تَأتي العَزائِمِ

وتَأتي عَلَى قَدْرِ الكِرامِ المَكارِمُ

وتَعظُمُ في عَينِ الصّغِيرِ صِغارُها

وتَصغُر في عَينِ العَظيمِ العظائمُ

فقد كانوا يتكسّبون من شِعرهم رغم قصائدهم الرائعة وقد وصل التملق في بعض شعراء العراق إلى رفع الطاغية مقام الانبياء وكأني أرى (سيف الدولة الأمير صدقة بن مزيد وشعراء الحِلّة الذين يجلسون حوله ك شميم الحلي، وأبو القاسم ، وأبو المعالي، والشاعر الأعمى الأميري، وابن رطبة، وبن النّما، وأبو القاسم الخازن) يُنادون بصوت خجول (أين أدباء الحِلّة وشعرائها ماهذا عهدي بكم، هل يرضى عنكم صفي الدين الحِلّي والعلامة الحِلّي ابن المطهر وآل طاووس وسيد حيدر الحِلّي ومحمد مهدي البصير وطه باقر) كان النجباء منهم يسمعون أصواتهم ولكم لا يستطيعون فعل شيء تحت سطوة وبطش الطاغية في العراق ومنهم أدباء الحِلّة ومثقفيها الذين يتبادلون الشعر والأدب خفيّةً بينهم وهم (جبار الكواز، شكر حاجم الصالحي، عبد الأمير خليل مراد ومحمد خليل مراد، وشريف هاشم الزميلي وعبد الهادي عباس وناجح حسين المعموري وستار شويلية وسليم الخالدي وعلي الحسيني وعائد خصباك وصلاح السعيد وآخرون) الذين يكتبون وينظمون الشعر بالحيطة والحذر ويتبادلون الكتب والمعرفة الثقافية والأدبية والذين شكلوا اتحاد أُدباء في الحِلّة خلال تلك الفترة الصعبة، وغيرهم من الأدباء غير المنتمين إلى الاتحادِ أمثال الشاعر الشعبي موفق أبو خُمره والشاعر صلاح حسن الذي كتب قصيدة وألقاها بعنوان (أنا مجنون بسبب وأنت عاقل بلا سبب)، وطاله لِسان المخبر السري باعتبارها قصيدة

تمس الحكومة مما حَدا به الهروب إلى خارج العراق وغيرهم... أما شقيقه أحمد فإنه يتحمل مرارة التحاقه بالجيش وتفكيره المستمر بإخوته وأهله.

في مصر بدأ التفتيش الدقيق من قبل أفراد الشرطة وضجت نِّساء العمارة باللغطِ والحوارات والاستنتاجات حتى وصل أفراد الشرطة إلى الطابق الذي يُظن بأن الجريمة قد وقعت في إحدى شققه، سمع صوت رجل أجَشّ يقول: إن المجني عليها مُلطخة بدمائها تحت سلالم في تلك الشقة، رجع إلى نادية خائفًا، يا إلهي إني أخشى بأن الرجل يشير إلى شقتي! ولكن علي سرعان ما سَمَع صوتاً يَصرخ... بريء... بريء، وأفراد الشرطة ينادون عليه لماذا قتلتها يا مجرم ووسط ضجيج وأصوات عالية تَنَفَسَ الصعداء عندما سمع القاتل يردد بصوتِ عالٍ قتلتها... قتلتها... خائنة.. خائنة، ودقائق هدأَ الصوت في أرجاء العمارة.

- أرجوكِ... أرجوكِ لا تجلبي ليّ المشاكل.

كان يؤشر بإشارةٍ توحي لها بالانصراف.

- إن الخمرة التي لاحظتها لو عرفت ما هو السبب لعذرتني.

حدث نفسه: قد تكونين قاتلة أو فاجرة وأردف بصوت ينم عن انزعاج.

- أرجوكِ لا تتحدثي، أظن أني قُمتُ بالواجب.

رغم ذلك لكنّ شيئاً غريباً دخل إلى قلبِه عندما شاهد وجبة الإفطار على طاولةِ الطعام، فإن ذلك أبعد عنه هموم الوحدة وقساوتها وذكرته بوجباتِ الإفطار التي كانت تجمعه مع أهله على مائدةٍ واحدة.

لوت عُنقها وكأن شيئاً في صدرِها يحوّم كسفينةٍ مهجورة غَطَتها أمواج البحر والكلمات أصبحت ترتجف في شفتيها اللتين أصبحتا شاحبتين وعينيّها تذرفان الدموع.

أحاطه الخوف على مستقبلِه وقيود الغربة طوقته بأسلاكٍ مِن نارٍ وفجأة تحول الحزن المشحون بالقلق والتوتر إلى ضحكةٍ دون ابتسامة ثم تحولت إلى قهقهة وهو ينظر إليها كانت ترتدي قَميصَهُ بالمقلوب، خفضت عينيّها ناظرة إليها، وضحكت ضحكةً بانت فيها أسنانها البيضاء كقطعٍ من الثلجِ المرصوص بإتقان:

- كيف ستذهبين وبأي ملابس وملابسك ممزقة؟ هزّت رأسها لا أعرف.

-الحمد لله أنه يوم استراحتي، انتظري هنا ولا تفتحي الباب لأحد مهما يكن حتى أجلب لكِ الملابس وتذهبين.

لبسَ سترته وبنطاله ولمع حذاءه المدبب مِن الأمامِ، مسك فرشاة الشعر ليسرح بها شعره كانت تنظر إليه واستغرقتها حاله من التفكير...

- يا سامح هذه الربطة الحمراء جميلة عليك وتتناسب مع القميص الأبيض والسترة الرصاصي.

مسكت العطر بيدها، وضعت قطراتِ منه في راحتها، مسحتها بوجه سامح.

- أريدك يا سامح أن تبقى أجمل شخص.

كانت القهقهات تتعالى منهما وهو يقترب منها ويضع قُبْلة على خدِها المتورد وهي تشم عطر جسده.

- أنا أحبكِ يا نادية.

- أنا أحبك أكثر أرجوك لا تتأخر لأني لا أعرف النوم لوحدي.

- هي ساعات وأعود يا حياتي.

في تلك اللحظات رمى علي العراقي فرشاة الشعرعلى الطاولةِ فأحدثت صوتاً يخترق قلب نادية، حست بوجودها في الشقةِ وتلك الذكرى الجميلة قد زالت وامتلأ مكانها كيف تحصل على الملابِس التي تُناسبها لكي تعود مِن حيث أتت.

بقيت وحيدة حبيسة الجدران تسير جيئةً وذهاباً، جلست على الكرسي، بدأت تُقلب الكتاب على المنضدة لَفت انتباهها العنوان (حقوق الإنسان) أرادت لفضولها أن تقرأ إحدى صفحاته:

-عدم التمييز العنصري بين الأسود والأبيض.

_ عدم التمييز بين الغني والفقير في التعامل والمثول أمام القانون.

- المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق والترشيح للمناصب الحكومية.

- لكل فرد الحق في الحياة والحرية ولا يجوز الحرمان من هذه الحقوق.

- لكل فرد التمتع بحقوقه الشخصية وماله الخاص.

- المتهم بريء حتى تثبت إدانته في محاكمة قانونية عادلة.

- يُحظر جميع أنواع التعذيب النفسي والجسدي والمعاملة غير الإنسانية.
- حرية التعبير والفكر.
- تحرم تجارة العبيد ويحرم الإتجار بالنّساء والأطفال.

ضَرَبت الكتاب بقوةٍ إن تلك الكلمات التي قرأتها قد أثارت في قلبها سُخرية موجعة من ذلك العالم الذي يتحدث عن حقوق الإنسان وهي مفقودة، حدثت نفسها:

حبرٌ على ورق، شعارات وملصقات على الجدران فقط دون تطبيق، لو طبقت حقوق الحيوان لكُتب للإنسان أن يعيش بكرامة وسعادة تناسوا أن الإنسان كرمه الله تعالى على سائرِ المخلوقات، أراه يتعذب ويرمى للكلاب السائبة ويُحجر في حفرِ الظلام أو يُداس بالأقدام ويرْكَل.

يقولون لا فرق بين الغني والفقير والآن الفقير يستجدي في الشوارع والأزقة الضيقة من أجل لقمة العيش، يقولون المساواة بين الرجل والمرأة والآن المرأة تُستعبد بأقسى أنواع الاستعباد وتُباع في الأسواق كسلعٍ رخيصة وتتقاذفها الأجساد النتنة لإشباع حيوانهم الرابض تحت ثيابهم.

يتكلمون عن الحرية، أي حرية هذه؟

كان وجهها متجهماً وتضع أناملها بين شعرها المتدلي على المنضدة، تركت الكرسي، تصفحت الجدار كما تتصفح الكتاب، أطالت التحديق إلى صورةٍ مُعلقة كان منظراً لربيعٍ فيه الأشجار زاهية والأرض مكسوة بلباسِها الأخضر فيه برج القاهرة السياحي وامرأة تنحني على طفلِها تُقبّله، فَرت

الدموع مِن عينيها دون شعور وقفت كخشبةٍ يابسة بلا حياة تُحدق كأنها قد صُعقت بتيارٍ كهربائي، تحولت عينيها إلى قطعٍ زجاجية سوداء لا تبصر فكأنها تسمع صوت من بعيد يُناديها.

- أمي لماذا تركتيني وحيداً إني مشتاق إليكِ ألا تذكريني.

وقفت وأسندت يديها على ركبتيها، جلست على الأرضِ أجهشت بالبكاءِ المتقطع وتأن أنيناً موجعاً، تهذي ابني.. ابني ..

وفي الجهة الثانية من الحائط لوحة للفنان فان كوخ، طرقت الباب بصوتٍ عالٍ، مسحت دموعها بطرفِ قَميصَها الذي ترتديه، سمعت نداء من خلف الباب.

- أنا علي افتحي الباب.

توجهت إلى الباب، سحبت مزلاج الباب كان وجه علي جميلاً فيه إشراقة الشباب وعنفوانه.

- السلام عليكِ.

- وعليكم السلام.

دخل، أغلق الباب، أعاد المزلاج وأحكمه كان يحملُ بيده كيساً أسود عليه صوره نسائية قال لها:

- تفضلي هذا الثوب المتواضع اعذريني على التقصير.

- إني أشكرك وأدعو الله تعالى أن يوفقك في دراستك وحياتك.

- إن الطريق فارغ لأن اليوم عطلة يمكنكِ الذهاب دون أن يراكِ أحد.

توجهت إلى الحمام، خلعت القميص والسروال، نظرت إلى جسدِها الأبيض الأنثوي وآثار الأيدي القذرة التي عبثت فيه، بكت وهمّت بارتداء الثوب، مسحت دموعها وضعت ثوبها الممزق في نفسِ الكيس الأسود، رفعت شعرها ولفته على شكل تفاحة فوق رأسها، خرجت من الحمام، في تلك الأثناء كان علي يجلس على الكرسي بعينين قلقتين، يُقلّب الأمور مِن عدة وجوه وذو حيطة وحذر.

- قمت بالواجب يا علي لكن لم تعرف قصتي أنا مظلومة ابني وإن رؤوف...

- أرجوكِ اذهبي أنا غريب هنا ويصعب عليَّ مُساعدتك.

حاولت أن توضح له ما جرى لها لكنه لم يصغِ لها، كانت عينيه الحائرتين حزينتين تنظران إلى الكتابِ ليتحاشى الكلام معها حتى يئست من كلِ محاولاتها في البقاء، أدارت ظهرها، توجهت إلى الباب،

اصطفقت الباب، انزاحت تلك الصورة الجميلة التي عاشها في تلك اللحظة، نظر في أرجاء الشقة أصبحت خالية من نادية أحس بوخزةٍ في قلبه ربما تأنيب الضمير، كانت أردافها وطولها المعتدل والتواء خصرها وعينيها الجميلتين ورمشيها الطويلتين قد أعادت إلى ذاكرتِه تلك الطالبة نسرين التي عشقها في أيام دراسته الجامعية وتجواله معها كانا يسيران معاً والجو مشحوناً بالقلق، وكل ما حولهما جميل حتى الهواء الذي يتنفساه لا يشبه الهواء الذي يتنفسه باقي الناس وقلبيهما كزجاجةٍ شفافة يراها وتراه دون كلام تتشابك أيديهما حتى يصلان إلى أسد بابل ذلك التمثال القديم

وآثار البناء المهشم لملوك قد رحلوا بعد أن شيدوها كانت عيناهما متوجتان ملتهبتان بنار الحبّ النقي البريء وينظران إلى المعابد المشيدة من الطين والطابوق بهندسةٍ معمارية راقية وقد لفت انتباههما تلك القطع التعريفية المثبتة في كل منعطف، كانا متماسكين بالأيدي حتى حَست كأنها قطعة من الجليد تذوب بين يديه التي تحولت إلى شُعلةٍ من النار، تَطيرُ بجناح عصفورة في واحةِ عِشقه لكنها تَخشى الاقتراب من الشُعْلةِ المتوهجة من سُمرةِ خديه كالفراشة التي تخشى احتراق جناحيها كلما اقتربت من أشعة الشمس، ينظر إليها بكل شرف وأمانة وهي أمله في الحياة وهي قلبه الذي ينبض باسمها يُردد لها كما كان يقول جلال الدين الرومي:

لي حَبيبُ حُبُّهُ يشوي الحَشا

لَو يشا يَمْشي على عَيْني مَشى

لكنه لم يتزوجها لعسر الحال، بقي يفكر بحالة نادية التي كانت عليها الليلة السابقة... حَدّث نفسه: الكثير من الفتيات بهذا الحال عند فقدان رقابة الأهل! زَمَّ شفتيه وهَزَ رأسه.

تصفح كتاب عن تأريخ بابل لتيحاشى الكلام معها... (بابل كانت عاصمة لإمبراطورية امتدت من غزة في الغرب إلى الخليج العربي ومن أرمينيا شمالاً إلى الصحراء العربية جنوباً تخضع لسيطرة الملك نبو خذ نصر الذي حكم من عام **605**ق.م إلى **562** ق.م وهي أعظم مركز سكاني في العالم

وفيها زقورة ايتيماتكي العظيمة التي كان يُشار إليها على إنها المنصة الأساسية للسماء والأرض وهذه الزقورة أعيد بناؤها على عهد نبوخذ نصر لترتفع مسافة **70**قدم فوق الوادي المنبسط لمنطقة الفرات السفلي وزينت قمتها بالقرميد المزجج الذي يلمع مع الشمس وكانت بابل أيضاً مكان للسجن حيث أخذ اليهود أسرى من أورشليم للفترة من **598_587**ق.م)، أما بالصفحة الأخرى تُوجه بعنوان أسد بابل ذلك التمثال الذي عثر عليه في مدينة بابل الأثرية في العراق في سنة **1776** من قبل حفريات أثرية ألمانية وهو مصنوع من البازلت الأسود الصلب ويظهر هذا التمثال على شكل أسد يقف على شخص بشري طوله يبلغ حوالي مترين بالقرب من مبنى الجنائن المعلقة رجح بناء هذا التمثال من قبل الملك البابلي نبو خذ نصر الثاني (**605-562**م) إلا أن شكله ومادة صنعه رجحت العلماء من أنه قد يعود الى فترة الحيثيون وعلماء آخرون قالوا أنها من المحتمل أن تكون من الغنائم التي غنمها البابليون أثناء فترة حكم نبو خذ نصر الثاني أثناء غارته على بلاد حاتي ويرى الباحثون أن تمثال أسد بابل هو تجسيد لقوة بابل وفرض سلطتها على الشعوب، أما في الصفحات الأخرى عن شريعة حمورابي، وكأن نصوص قوانين حمورابي قد نصبت منصة الحكم وبدت له الحروف والكلمات كأنها جمّهرة من النّاس يتوسطهم في قفصٍ صغير مُتهم

قابع حَليق الرأس والقاضي يصدر قراراً بالحكم عليه... تَخيل نفسه ذلك المُتهم لأنه لم يُساعد نادية، هَزّ رأسه وهو يتمتم لم أقسَ عليها!
قَلَب الصفحة تزاحمت الأرقام والجمل حتى انكشف الزحام عن ذات المنصة ولكن من يعتليها لجنة من القضاة وفي ذلك القفص الصغير ذات القاضي الذي أصدر قراراً غير صائب ضدي يُحاكم عَلناً أمام الناس، امتعض من تلك المجلدات التي تحوي في طياتها آلاف الأوراق التي تتحدث وتتضمن وتعالج أمور القضاة في بلدي الذين لا يحاسبون عن إصدار قرارات خاطئة في حين قبل آلاف السنين في تلك المسلّة التي دثرها التُراب بين أُناس عاشوا حياة بدائية يُعاقب القاضي إذا أصدر قراراً خطأ علناً.

عبد المجيد المصري الذي قضى نهاره بين الجص والطابوق عاد إلى الفندق تعباً بعد أن اشترى قليلاً من الفول والصمون، توجه إلى غرفته التي كان يسكن معه فيها ثلاثة مصريين هم كل من عبد الجليل وفيوم وعبد المُعطي اغتَسَل بماءٍ فاتر نَظَف ملابسه بيديه تذكر عندها زوجته نفيسة وقدْرَ تعبها في تولي مَهام البيت ولوازمه التي لم يشعر بها إلا في الغُربةِ، عند خروجه وجد المائدة قد تم إعدادها من قبل عبد المعطي المولع بالطبخ وترتيب الطعام، كانوا ينظرون إلى التلفاز حيث الأستاذ كامل الدباغ يتكلم بكل وقار في برنامج العلم للجميع وقتها ذَكّرهم عبد المجيد بالبرامج التي

كان يقضي وقتاً ممتعاً فيها مع أهله ك (العلم والإيمان ومقدمته الموسيقيه، ومقدمة د.مصطفى محمود، والكاميرا الخفية لإبراهيم نصر، ومسلسلات المال والبنون وليالي الحلمية، ورأفت الهجان وغيرها) وفي هذه الأثناء سمعوا صياحاً بصوتٍ عالٍ، اندهشوا، تركوا الطعام، هَرولوا إلى الصالةِ، وجدوا النُزلاء مُتجمهرين وسطهم صاحب الفندق أبو أيمن يبكي وينوح كما تنوح المرأة الثَكلى، عرفوا منه بأن ولده قد استشهد في المعركة أبان الحرب العراقية الإيرانية صرخ:

- تباً للحرب التي أخذت مني ولدي الوحيد، من أجل ماذا تموت الأبناء لا شيء نفهمه من هذه الحرب.

كان بجانبه رجل وقور، وَخَزهُ، هَمس بأذنِه (الحيطان إلها أذان استر عَلينا الله يستر عليك) سكت أبو أيمن رغم المرارة والألم.

كان عبد المجيد ورفقاؤه ينظرون بعينِ الأسف والحزن إلى أبو أيمن، طَبطَبوا على كتفه.

- البقاء لله تعالى يا أبو أيمن خلي إيمانك بالله.

رغم احتدام الحرب بين البلدين ووقوع الكثير من الشهداء إلا أن الحكومة كانت مسيطرة على زمام الأمور والشعب بين الصمت والخوف وتسلط المتنفذين، وفي هذه الأثناء تعرضت عائلة عبد الله في الحِلّةِ إلى تفتيشٍ

دقيق بحثاً عن ولده حسين فلم يجدوه واقتادوا والده إلى آمر المفرزة لأخذ التعهد منه وسط تجمهر كبير من النسوة والرجال مع العديد من آباء الهاربين، يتَمرْجل بينهم المتملقين بقطعة السلاح التي يحملونها دون خجل... أطفال يركضون خائفين والنسوة ينظرنَ من فتحة الباب وسيارات كثيرة تطوق المنطقة تأهباً لإلقاء القبض على أي مشتبه، ضَرب عبد الله يداً بيد عند عودته إلى داره بعيداً عن أعين الرفاق الحزبين وحدث نفسه: إن هؤلاء المتطفلين يعيشون في كل زمان ويغيرون جلودَهم كالأفعى، ويصفقون في كل مَحّفل تذكر الهتافات التي ترسخت في ذهنه وطبعت في ذاكرته في **1948** فيما يتعلق بالرئيس نوري سعيد.. نوري السعيد القندرة وصالح جبر قيطانها وبعدما مالت الكفة أصبحا.. نوري السعيد شدة ورد وصالح جبر ريحانها وفي عام **1956**.. مصر حرة عربية فلتسقط الصهيونية، حتى **1958** صارت.. لا بعثية ولا قومية جبهة حرة وطنية، وفي عام **1962**.. وطن حر وشعب سعيد، يتذكرها بوضوح وكأنه يوم أمس حتى هتفوا.. هذا اليوم الجنة نريدها.. نوري السعيد إنكص إيده، حتى تعاقبت الأيام والشهور والسنين واستمرت التقلبات في أحوال الناس ومزاجاتهم والأهازيج للزعيم كريم عبد القاسم.. بالرّوح بالدم نفديك يا زعيم.. ما كو زعيم إلا كريم.. كل أرواحنا فدوه لابن قاسم، حتى تمخض عام **1963** بهتافات.. شعب شعب كله بعثية موتوا موتوا يا شيوعية.. يا

بغداد ثوري ثوري خلي قاسم يلحك نوري، يالنا من شعب عجيب الطبائع والميول والتغير المفاجىء بالهتافات.. عاش محمد عارف والضباط تعود ليه تعود.. عبد السلام محبوبنا مكتوب جوّه قلوبنا كان ذلك عام **1968** وما بعدها من أحداث حتى حلت علينا أيام البكر ونادينا بكل قوة .. عاش عاش البكر والشعب دومه منتصر .. بالروح بالدم نفديك أبو هيثم وكان ذلك **1971** حتى تتابعت الأحداث ووصلنا إلى هؤلاء المتطفلين الذين هتفوا.. صدام كله للبكر كل الشعب ميريدك.. بالروح بالدم نفديك يا صدام وها نحنُ نعيش هذه الأيام التي هتفنا بها وندفع ثمن تلك الهتافات أرواحنا وأرواح أبنائنا وإعدام كل من يتطاول على البعث وأعوانه...

عائلة نادية في مصر بسيطة وفقيرة تسكن في منطقةِ السيدة زينب بدارٍ صغيرة، أبوها عاجز، لثلاث بنات وهي أكبرهنَّ سِناً، أمها (خادمة) في دارٍ كبيرة بالزمالكِ لدى عائلة ثرية كانت في حينِها طالبة في الثانويةِ، كل عائلتها تعيش على أجرة أمها، في إحدى الليالي أُصُيبت أمها بمرضٍ، رقدت بالفراش، بقيت على هذه الحالة ثلاثة أيام، لم تذهب للمدرسة، في اليومِ الرابع طلبت منها أمها أن تترك المدرسة وتذهب معها إلى الدارِ لغرض مساعدتها كونها مريضة لا تقوى على العمل، كانت عائلة (السيد شكري)

تسكن تلك الدار مع أولاده رؤوف المقدم بالمباحث وسامح الشاب المدلل خريج صيدلة لكنه دون عمل، وصلنَّ، كانت أشجار المانجو والليمون تتشابك في (الجنينة)، بناء شامخ عليه رسوم فرعونية كأنه قلعة ملك من الملوك لم تره عينها مثل تلك البناية جمالاً، تعثرت قدماها ارتعش جسدها، نظرت إلى أمها:

- لا تخافي يابنتي إن سكان الدار ناس طيبون.

دَقت أمها جرس الباب كانت تتخيل من يفتح رجل كبير وعلى رأسه قبعة ضخم الجثة، تفاجأت بشابٍ وسيم وعينيه واسعتين يرتدي ملابس رياضية، قال بصوت عذب:

- تفضلا.

رجع إلى الخلف، فتح المجال لدخولهنَّ كانت أمها تعرف الطريق إلى المطبخ اصطحبتها معها لغرض مساعدتها وهو يختلس نظرة عقب أخرى إلى باب المطبخ يفتعل الحجج للحديث معها.

- ممكن كوب قهوة بسكر زيادة وكأس ماء.

- حاضر.

طلبت من ابنتها إعداد القهوة وتحضيرها إلى سامح في الصالة، حملت كوب القهوة وكأس الماء إليه كانت حمرة خديّها واختلاج أهدابها وإبتسامتها المحتشمة الحلوة قد أثار في نفسِ سامح شيئاً غريباً لم يَحسه من قبل هذه اللحظة رغم رفقته لنّساء عديدات.

-شكراً... أتعبتكِ.

لم ترد عليه وبانَ على وجنتيها الخجل، رجعت مسرعة إلى المطبخ، كانت تلك العائلة ثرية، لها عادات وتقاليد تختلف تماماً عما كانت عليه حياتها، انتهى ذلك اليوم بعد أن عرفتها أمها بأهل الدار وعندما وصلت نادية إلى بيتها البسيط رمت نفسها على السرير في نفس غرفة شقيقاتها الصغيرات، بدأت صورة سامح تسبح في فضاء كيانها وعينيه ترتسم أمامها والذكرى تجتر كلامه وضحكته من أعماقها لكنها لن تراه ثانية لأنها تعلم أنها ذهبت فقط لغرض مساعدة أمها، وفي منتصف الليل أصاب أمها آلام شديدة ونادت:

- نادية نادية نادية.

خرجت من غرفتها مسرعة، وجدت أمها تتألم بشدة بسبب الصداع النصفي وضعت رأسها في حِجرها وضغطته براحة يديها حتى أخذها النعاس، تركتها لتنام.

توّج الصبح بأنسام الربيع وتألق النهار بخيوط الشمس الساقطة من أعالي الأشجار والبنايات ونفذ إلى قَلبِها صوت الصباح للمطربة فيروز (نسم علينا الهوا من مفرق الوادي يا هوا دخل الهوا خذني على بلادي) كان صوتاً مؤثراً وجميلاً.

أفاقت نادية على ذلك الصوت، تمنت أن تبقى في فراشها حتى تسمع كل الأُغنية لكنها تذكرت مرض أمها ولابد لها أن تطمئن عليها وعلى شقيقاتها، نهضت.

-ادخلي يا نادية.

دخلت تنظر بعينين قلقتين إلى أمها وأبيها الملقيان على الفراشِ

- أرجوكِ اذهبي إلى دار السيد شكري خوفاً من قطع الأجرة، أنكست نادية رأسها لأنها تود أن تذهب إلى المدرسة مع صديقاتها لتحقيق طموحها في دخول الكلية، رفعت عينيها إلى سرير والدتها وأبيها العاجز، أحست بحزنٍ وهمٍّ:

- حاضر ولكن...

لوت عُنقها، قاطعتها والدتها:

- إن لم تذهبي سوف "أطرقت رأسها ثم رفعته، أشارت بيدها إلى والدها العاجز، تركتهما وتوجهت إلى دار السيد شكري، كانت تسير وكأنها قد زهدت الدنيا وما فيها، رغم إعجابها بالشاب الذي رأته مع والدتها في الدار لأن إكمال الدراسة هي أمنيتها في الحياة، وضعت أقدامها على البوابةِ الأولى للدار التي كانت الأشجار فيها تتعانق متراقصة تحت نسمات الهواء العذبة التي تبعث النشوة والسرور لكن المكان يُخيّم عليه السكون وكأنه قلعه قد هجرها سكانها.

بدأت تُحدق في أعالي البناء التي كانت تُزين بالزخارفِ التراثية الفرعونية والورود بنسق رتيب والأرض مخططة بواسطة الأرصفة الحجرية الضيقة كأنها خارطة نظامية لبلد مِن البلدانِ كانت خائفة وقلقة لكنها كانت مضطرة لذلك.

ضغطت على منبه الصوت وبسرعة فتح الباب سامح، هبّ بوجهها كان يهمّ بالخروج نظرت إلى قميصِه الأصفر الأنيق وبنطاله الأسود، حَدّقَ بعينيها:

- صباح الخير

- صباح الخير

- تفضلي

- أمي مريضة جئت بدلاً منها.

- آو... مريضة الله يشفيها.

- حاضر.

دخلت المطبخ، رتبت الأواني، مسحت مقدمات العوارض الخشبية التي كانت مغلفة بالصاجِ، في تلك الأثناء سمعت وقع أقدام تهبط من أعالي السلالم ينادي..

- يا أم نادية كوب شاي.

بسرعة أحَضرت كوب شاي مرسوم عليه صورة (نفرتيتي) مع كأس ماء، اقتربت منه كان يجلس على كرسي مغلف بالجلدٍ أسود منفوخ نظرت إلى وجه فكأنه قد حفر في صخرٍ.

- تفضل يا سيدي.

- آه... أنت.

- نعم إن والدتي مريضة ولم تستطعْ الحضور.

هَزَ رأسه، زَمَّ شفتيه إلى داخلِ فمه كان وجهه غليظاً تبدو القساوة في عينيه الرماديتين بعد لحظات سمعت صوت سامح يصل إليها:

- يا آنسه كوب قهوة مع كأس ماء.

نظر إليها وكأنه لم يرها من قبل، نظراته بدت غربية، ارتعشت قدماها لكن شيء جميل لم تحسه من قبل شعرت بجمالِ الدنيا وقيمتها عندما تقابلت عينيها بعينيه انحنت بصينيةِ القهوة، حَدّقَ أسفل رقبتها وكأن عينيّه قد تجمدتا.

_ شكراً .

بعد أن أنهت عملها سلمت على أم رؤوف، خرجت كان سامح ينظر من نافذةِ الشباك، نزل بسرعة، حمل مفتاح سيارته، نادى عليها.

_ يا آنسة،

التفتت إليه..

_ حاضر .

_ أنا خارج لشراء بعض الحاجيات اصعدي معي.

_ لا يا سيدي.

أصر على إيصالها إلى دارِ أهلها، ركبت معه في السيارةِ كان الكرسي الأمامي مُريحاً والدفء بدأ يغزو جسدها، ضغط بإبهامه، خرج صوت للمطرب عبد الحليم حافظ[1] (نار يا حبيبي نار) وكأن نار عبد الحليم تتسرب إلى قلبها البارد فتصيبه بحمى العشق، يسمع وينظر إليها.

_ أنت جميلة يا نادية.

_ هذا من ذوقك.

كان سامح مُحباً للشعر فأنشد لها أبياتاً من شعر المتنبي[2]..

وَما كنتُ ممّنْ يَدْخُلُ العِشْقِ قلبَه

وَلكِنَّ مَن يُبصِرْ جفونَكِ يَعشَقِ

كانت تنظر في عينيه فيغرق وينظر في عينيها فتضحك قائلاً: إن عينيكِ بين تفاحتين حمراوين تخطفُ الأبصار، أنتِ ياحياتي يحرَقني لَهيبُ نارك كما حَرق شُعراء الحُب قبلي فإن الشاعر نزار القباني[3] قد التهب قلبه بنار الحب بقوله : سأقولُ لكِ أُحِبُّكِ ..

وتضيقُ المسافةُ بين عينيكِ وبين دفاتري

ويصبحُ الهواءُ الذي تتنفَّسينه يمرُّ برئتيَّ أنا

وتصبحُ اليدُ التي تضعينَها على مقعد السيّارة هي يدي أنا ..

---

[1] عبد الحليم حافظ: عبد الحليم إسماعيل شبانة مغني مصري ولد 1929 وتوفى عام 1977

[2] المتنبي: هو أبو الحبيب أحمد بن حسين بن الحسن ابن مره بن عبد الجبار وشهرته المتنبي من مواليد مدينة الكوفة بالعراق عام 915 م وهو شاعر العصر العباسي (750-1258م)

[3] نزار القباني : نزار بن توفيق القباني دبلوماسي وشاعر سوري معاصر ولد عام 1923 م وتوفى عام 1998م

سأقولها، عندما أصبح قادراً، على استحضار طفولتي، وخُيُولي، وعساكري ومراكبي الورقيَّة..

وجميل بُثينة[4] يتقلب يميناً ويساراً حتى قال لحبيبته: لها مقلةُ كحلاء نجلاء خلقةً، كأن أباها الظبي أو أُمَّها مَها.

وابن الرومي[5] قال: نظرت فأقصدتْ الفؤاد بطرفها ثم انثنت عني فكدتُ أهيمُ ويلاه إن نظرتْ وإن هي أعرضت وقع السهام ونزعهن أليمُ.

وصفي الدين الحلّي[6]: كفي القتال .. وفكي قيد أسراكِ يكفيك مافعلتْ بالناس عيناكِ كلت لحاظك مما قد فتكت بنا فمن ترى في دمِ العشاق أفتاكِ كملتْ أوصاف حسنٍ غير ناقصةٍ لو أن حسنكِ مقرون بحسناكِ... حاول أن يمسك يدها لكنها سحبتها وحذرته، تجهّم وجهها..

يا نادية... يا نادية. لم ترد عليه.

_ أنا آسف يا نادية.

---

[4] جميل بثينة:هو جميل بن عبد الله بن مَعْمر العُذْري القضاعي ويكنى أبا عمرو ولد في الجزيرة العربية عام 659م وتوفى في مصر أبان ولاية عبد العزيز بن مروان

[5] ابن الرومي:هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريج وكنيته ابن الرومي نسبة الى أبيه ولد ببغداد عام 836م وبها نشأ كان مسلما مواليا للعباسيين ومما قاله في الفخر بقومه:قومي بنو العباس حلمُهمُ حِلْمي هَواك وجهلُهُم جهلي توفى عام 896 م في بغداد.

[6] صفي الدين الحلي:هو أبو المحاسن عبد العزيز بن سرايا بن نصر الطائي السنبسي نسبة الى سنبس بطن من طيء ولد في الحِلّة عام 1277م وعاش في الفترة التي تلت مباشرة دخول المغول لبغداد وتوفى عام 1339م في العراق بغداد

طلبت منه التوقف بشارع السيدة زينب، نزلت، نظر إليها بسيارته... عندما وصلت إلى نهايةِ المنعطف التفتت إليه، رأته ينظر إليها
كانت نادية قد حبست شعورها عليه ولولا عزة نفسها وتربيتها لَرَمت نفسها بين أحضانه، دخلت إلى دارِها مبتسمة بوجه والديها، توجهت إلى غرفتها، بدأت تجتر الكلمات، حاولت أن تتذكر وجه سامح وابتسامته الجميلة كانت هذه أجمل لحظات عاشتها معه رغم إنها كانت مجرد نظرات وابتسامات.
قضى سامح ليلته قلقاً خجلاً مِن تصرفاته، عَرف إنها لا تشبه النساء اللواتي تعرف عليهنّ سابقاً واللاتي مجرد ركوبهنّ معه في تلك السيارة الراقية يرمينَّ أنفسهنَّ بين أحضانه.

كان عبد المجيد المصري يجلس مع رفقائه في مقهى أم كلثوم[7] ويتعالى صوت المذياع للمطربه أم كلثوم (يا حبيبي كل شيء ..ما بأيدينا خلقنا تعساء.. ربما تجمعنا أقدارنا .. ذات يوم بعد ما عز اللقاء.. فإذا أنكر خل خله .. وتلاقينا لقاء الغرباء .. ومضى كل إلى غايته .. لاتقل شئنا فإن الحظ شاء ...

[7] مقهى أم كلثوم: في بغداد شارع الرشيد شيدت لحب العراقيين للمطربة أم كلثوم التي زارت بغداد مرتين الأولى في تشرين الثاني عام 1932 والثانية عام 1946 بدعوة من الوصي على عرش العراق آنذاك الأمير عبد الإله.

أخذته تلك الأغنيه بعيداً.. بعيداً.. سرح معها وكأنه جسداً فارغاً من محتواه وروحه قد تعلقت بأهله وتجواله معهم في وسط القاهرة بأنوارها وبنائها الشامخ وقضى وقتاً جميلاً في وسط تلك المشاعر الهادئة المريحة وبعدها توجه إلى الفندق.

وفي الصباح توجه إلى دار زوجة الشهيد أم جرجيس عقب اتفاق مسبق بينهما على مواصلة العمل وركب الباص وهو يحمل أدوات البناء بكيس أبيض وسارت به الباص وهو نظر إلى البنايات الشامخة، في بغداد والمحلات المكتظه بالناس ووقع بصره على المتحف البغدادي وصوت المطرب ناظم الغزالي[8] يخترق الضوضاء المتعالية وسط الباص (عَيَرَتني بالشيب وهو وقارُ ليتها عيرت بما هو عارُ أن تكن شابت الذوائب مني فالليالي تزينها الأقمار دموعي بيوم ليلى وردت عيني يمرها النوم ليله تعيرني عجب بالشيب ليلى وأخير اثنيننا نشيب سوا) حتى وصل إلى دارها، وجد العمال واقفين بالقرب من الدار، طرقوا الباب، خرجت أم أحمد ترتدي فوطتها السوداء وتلتحف العباءة السوداء اللاتي اعتدنَّ نساء العراق ارتداءها.

_ صباح الخير يا أم أحمد.

_ صباح الخير، ووجهة بصرها نحو أبو عبد السميع والعاملين معه.

[8] ناظم الغزالي: مطرب عراقي ولد عام 1921 في بغداد كان الغزالي يتيماً وأمه ضريرة، اشتهر بصوته القوي وإجادته للموال، تزوج من المطربة الغنائية سليمة مراد، وكان سفير الاغنية العراقية

أومأت إليهم بالدخول واعتلوا السلالم كانت مواد البناء جاهزة ومتوفرة بكميات كبيره فشرعوا بالبناء وفي الساعة العاشرة حضرت أم جرجيس ومعها أطباق من الطماطم المقليه مع اللحم والبيض وكيس من الخبز الأبيض وأكواب شاي وطلبت منهم ترك العمل وبدؤوا يقضمون قطع الخبز بتلذذ، ورائحة الشاي السيلاني تخترق أنوفهم، حتى تعالى من المذياع صوت المطرب حميد منصور[9] (سلامات سلامات أبعث سلامات، ويه الرايح ويه الجاي ابعث سلامات ، سلامات سلامات ريتك سلامات صبح ومسى يهواي ريتك سلامات...) كان عبد المجيد لبِقاً متكلماً محبوباً فبدأ يتحدث عن الخير بالعراق وطيبة أهله وشهامتهم وعن جمال بغداد ونظافتها وكان يضع بيده خاتم عليه فص منقوش وبعد أن أكملوا وجبة الإفطار استأنفوا عملهم حتى المساء واستلموا الأجرة وأعطته أم أحمد كيساً من الخبز وبعض الخضار.

في الليل أصاب عبد المجيد حمى شديدة ساعتها تذكر زوجته نفيسة وأولاده عبد السميع وعبد الباسط عندما كانوا يلتفون حوله ويمرغون جسده المتعب وفي الصباح انتظرت أم جرجيس عبد المجيد المصري بعد أن هيّأت مستلزمات البناء لكنه لم يحضر وأخبرها العمال بمرضه تألمت عليه كثيرًا وأرسلت له بعض الحاجيات.

[9] حميد منصور: مطرب عراقي ولد في محافظة الديوانية عام 1945

إن أغلب العاملين في العراق هم من المصريين حيث أن كل الرجال في جبهات القتال ومن يحصل على شهادة جامعية عليه أن يُعلقها على الجدار مع الصور أو يضعها مع منديله في جيبِ بنطاله ليمسح بها حذاءه عند الحاجة، وذلك كان من الصعب أن تجد أم جرجيس من العمال العراقيين للعمل في دارها فهي كانت تعيش حياة الوحدة مع أبناءها الصغار عُقب استشهاد زوجها الذي خلف وراءه مشقة تحمل مسؤوليات كبيرة يتوجب عليها قضاءها بمفردها لكن صديق عبد المجيد عبد المعطي كان رجل أعزب في الأربعين من عُمره حسب ما كان يتكلم أثناء تناول وجبة الإفطار مع العمال وأفصح عن رغبته بالزواج من عراقية إن قَبَلت به وكان الكلام بحضور أم جرجيس التي باتت تلك الليلة تفكر بالموضوع كونها وحيدة وبحاجة إلى من يقف بجانبها في تلك الظروف الصعبة وفي اليوم التالي عند حضورهم للعمل تكلم معها عبد المجيد التي كانت تحترمه كثيراً لوقاره وشيمته عن رغبة صديقه في الزواج الرسمي منها لكنه ضعيف الحال ترددت خجلة إلا أن عبد المجيد خفف عنها وطأة الارتباك وبين لها بأنه زواج حلال وهي لا زالت في شبابها وعبد المعطى رجل شريف سوف يقف معها ويساعدها على تخطي الصعاب ويبعد عنها وحشة الوحدة... طأطأت رأسها خجلاً، فهمَ عبد المجيد بأنها وافقت على الزواج إلا إن عبد المعطي بدأ القلق والحيرة والخوف يلازمه رغم أنه كان يحب الزواج من عراقية لاسيما بأن أم جرجيس كانت تتمتع بجمال بالإضافة إلى أنها ميسورة الحال

ولديها دار كبيرة ويمكن أن تعينه على تخطي كل الصعاب في أرض الغربة ويبعد عنه مشقة العمل المضني، تذكر هجرته إلى العراق وما اضطره إلى ذلك رغم أن والده كان لدية أرض زراعية وبعض الأبقار يمكنه العيش دون ألم أو مرارة ولاسيما أنه الوحيد لأهله ولديه خمس شقيقات، ارتسمت الصورة أمامه عندما هَبَ لأخذ السلاح إثر سماعه خبر قيام أحد أفراد قريته بالاختلاء بإحدى شقيقاته وانتشار الخبر حاول والده منعه ليقوم هو بغسلِ العار إلا إنه أسرع إلى النهر حيث يتواجد مُرسي محمود في الأرض الزراعية، حاول إفهامه بأنه لم يَمس شرفها إلا أنه قام بإطلاق العيارات النارية عليهما حتى أرداهما قتيلين وهرب متخفياً عن الأنظار، طلب منه والده ترك مصر والسفر إلى العراق حتى ينتهي الأمر... بدأ يلوم نفسه: ربما كانت شقيقتي لم ترتكب أي خطأ! وهل الحب حرام في بلدنا؟ ومن تتكلم به يفصل رأسها عن جسدها بسيف العشق، وغسل العار، كانت ابتسامتها وصوتها لا تفارق خياله ودمعتها التي باتت مصدر تأنيب ضميره عندما حاولت إفهامه بأنها لم ترتكب أي شيء .ألم تعتبر فعلته بقتلِ بريئة عار عليه، تذكر ساعتها حال الكثير من النساء قتلن بهذ الطريقة مجرد الاشتباه بها وكانت المرأة عورة عندهم بكل مايصدر منها رغم إن ذلك يُخالف الشرع الإلهي الذي يدَعّيه كل أبناء قريته الذي اشترط لتحقق الزنا أربع شهود كانوا قد شاهدوا بأعينهم واقعة الزنا، وهما في حالة مواقعة، أنا أحمق، أنا من المجتمعات الذكورية التي تعتبر قتل الإناث من الأعمال

البطولية وتعتبرها أوسمة شرف، حيث إن انتشار تلك الجرائم في المجتمعات العشائرية والتي تؤمن بسياسة القهر الاجتماعي والتي يتم مباركتها في المجتمع الذي يسوده التخلف وغياب الوعي الثقافي والتعليمي، أبعد وجهه عنهم وفرت دمعه على خَده.

نادية وسامح تحولت علاقتهما إلى عشقٍ حقيقي، التقيا بالنادي، عرفها بزملائه، صارحها بالزواج كانت خائفة مِن أهله كونهم عائلة ثرية وهي بنت الخدامة لكنه وعدها بأنه سوف يُفاتحهم بالموضوع.

في صباح اليوم التالي كانت نادية في المطبخِ تُحَضر الطعام، سامح طلب مِن أهله الزواج بها وخاصة رأي رؤوف كونه صاحب الكلمة في عائلته ذو سلطة ونفوذ كونه رجل مباحث في الدولة، نادى:

- نادية... نادية... نادية.

حضرت مُسرعة، نظر إليها مِن قَدَميها إلى رأسِها، قطّبَ حاجبيه، سمرَّ عينيّه:

- نسيتِ نفسك، أنتم الخدم خُلقتم مِن أجلنا، لا تفكري أن تطوليّ شَعْرة مِن سامح.

طأطأت رأسها، حاولت العبث بأناملها، بكت بحرقةٍ وألم، هرولت إلى المطبخِ، جمعت حاجاتها، في تلك الأثناء نزل سامح من السلالم، نظر رؤوف إليه، صَرخ بوجهه

_ كيف تسمح لنفسك أن تتزوج بنت الخدامة فإذا فكرت بهذا الموضوع ثانية سوف أطردك من الدار.

خرجت نادية تحمل حقيبتها، صطفقت الباب خلفها، حصلت مشادة كلامية بينهما عقب خروج نادية لكنه جرى خلفها منادياً:

_ نادية... نادية.

سارت بسرعة، لم تلتفت إليه، تَبَعها في منعطفِ الطريق وهي تبكي بمرارةٍ وألم توسل إليها أن تركب معه في سيارته لكنها رفضت، أفهمها بأنه يُحبها ولن يتخلى عنها أبداً.

سارا معاً في جوفِ الطريق، وضعت رأسها في أحضانِه وعجلات سيارته تبتلع الخطوط المرورية وسط الشارع، الدنيا كلها قد رقدت في أجفانها، نَزلا معاً إلى دارِ أهلها، طلبها للزواج لكن أم نادية رفضت ذلك خوفاً من رؤوف ونفوذه وقدرته في إطالة أي شيء يُريده، خرج غاضباً يَتَسَكع في شوارع مصر وأزقتها لا يعرف ماذا يتصرف، لكن سرعان ما أخذته قَدماه إلى بيت صَديقة فريد الذي يسكن مع والدته، طرق الباب، خرج له صديقه نظر إلى عينيه الحزينتين، سقطت دمعة ساخنة على خَد سامح فاحتضنه بقوةِ... يا فريد لا أعرف ماذا أتصرف.

دَمدَم فريد على كتفه وأدخله إلى الدار حتى يعرف تفاصيل ما حدث.

توجه فريد مع سامح إلى سَكن نادية لغرض طمأنتهم ودفع الخوف والقلق في حالة الزواج كون سامح شاب يستطيع تحمل مصاعب الحياة، والحوار طال بينهم حاول فريد إقناع والديّ نادية بفكرةِ الزواج وأصرار سامح وحُبه لها، أكملوا مراسم الزواج كانت نادية كالوردة البيضاء في أحضان الربيع، تلقفها سامح بين ذراعيه بثوبها الأبيض الأنيق الطويل وعطرها الجذاب، هرول بها إلى شقتِه الراقية التي اشتراها بثمنِ سيارته، فراش واحد يجمع حبيبين في جوف الليل يصرخ ويختفي في تموجات شعْرها، تُناديه، يتكور كالطفلِ الرضيع بين أحضانها.

بعد انتهاء شهر العسل، خَرج سامح للبحث عن عمل، في الباب اقتربت منه وضعت قُبْلَتها على شَفتيّه أراد الرجوع إلى الشقة شوقاً لكنها طلبت منه أن يتوجه لغايته حَصَل على العمل وباشر في يومها كانت ابتسامة نادية تُلاحقه في كل مكان وعطرها لا زال عالقاً بين أحضانه يتنفسه مع الهواء الذي يحيط به.

مضت الأيام لكن سامح كان يتفاجأ في كل عمل يُطرد ويُدفع له الحساب رغم أنه غير مقصر بعمله، لم يعرف السبب ويوم بعد يوم ضاقت

معيشتهما، اضطر إلى بيع شقته الفاخرة، اشترى بدلها شقة فوق السطح بسعرٍ مُناسب لكن الأمور اضطرته إلى بيع الكثير من الأثاث.

كان آخر عمل له مع صاحب فرن الصمون الذي تفاجأ به يقول:

_ خذ حسابك إني سوف أغلق الفرن.

ألحّ على صاحب الفرن ليخبره عن الشخصِ الذي دفعه على ذلك، رفض، هدده بقوةٍ مسكه من عنقه، صرخ بوجهه.

_ أرجوك اتركني.

سكت، نكس رأسه إلى الأسفل وعينيه غائرتين تحت الأجفان.

- من هو؟ وإلا حطمتُ رأسك.

إن من طلب مني ذلك هو...

عبد الله ابن مدينة الحِلّة الذي تركه ولده علي وذهب إلى مصر لإكمال دراسته هناك تلقى صباحاً ورقة من مُبلغ المحكمة تُبين فيها حضور ابنته ليلى إلى المحكمة الساعة التاسعة صباحاً لقيام زوجها بطلاقها شرعاً، انتفض غضباً لعدم تقصير ابنته وهو يعرف كافة التفاصيل الحياتية بينهما وإنها مَن تقوم بالإنفاق عليه وعلى أطفالها بينما هو يقضي معظم وقته في المقاهي دون شعور بالمسؤولية وعندما تطلب منه العمل يقوم بضربِها، يَدّعي زوجها الرجولة وهو الآمر والناهي ولا يحق لها الاعتراض، أخذ ورقة

التبليغ إلى ابنته التي بكت عندما عرفت بأن زوجها قد طلقها رغم مرارة العيش معه إلا إنها كما رباها والديها على التمسك بالحياة الزوجية مهما يحصل على أن لا يصل بهما الحال إلى الطلاق... يا أبي أنه يدْعي الرُجولة وهو لا يملك أي شيء من الرجولة ولا يفهم معنى الرجولة فهو يقول الرجال قوامون على النّساءِ ولايعرف الرجولة صفة تُطلق على الذي يقوم بالإنفاق وإدارة أمور البيت وتولي كافة الأعمال التي من شأنها رعاية الأطفال وغيرها فإن كانت المرأة من تقوم بالإنفاق فإن صفة الرجولة تنطبق عليها، زوجي من تلك المجتمعات الذكورية التي تحب فرض سيطرتها على المرأة كما هم الحال في الديكة، وفي تلك الأثناء شَنَ عبد الله الحرب على زوجها بإقامة دعوتين الأولى في محكمة الأحوال الشخصية في الحِلّة هي دعوى نفقة لها ولأولاها والثانية دعوى أثاث زوجية في محكمة البداية وكان الغرض منها الضغط عليه وإعادته إلى رُشده، وفي الجلسة طلب القاضي انعقادها سراً حفاظاً على الروابط الأسرية والنصح والإرشاد وذكَرَهم بقول الرسول (ص): (إن أبغض الحلال عند الله الطلاق) ومصير أولادهم في حالة أنحلال العلاقة الزوجية وإعطائهم فرصة لتسوية الأمر وقام بتأجيلها، أفلح التوجيه والنصح من قبل المحكمة في قيام زوجها بإعادتها إلى الدار الزوجية بعد أن تعهد الزوج بالإنفاق وحسن المعاملة.

بدأ سامح يُضيق الخناق على صاحب الفرن حتى أعترف ..

- أخوك رؤوف.

قطب حاجبيه، تركه، توجه إلى دائرة المباحث، دخل إليه بعد أن أخبر الحرس بأنه شقيقه، وجده جالساً على الكرسي وبيده اليسرى قلماً يدون بقرطاسٍ أمامه

- ماذا تريد يسامح؟

- إذا لم تتركني بحالي سوف...؟ سكت زَمّ شفتيه.

- طلق بنت الخدامة بنت ال...؟

قاطعه سامح بعصبيه، رفع يديه بوجهه.

_ لا تتكلم عليها هي زوجتي لا تطاردني في كل مكان وإلا؟

ضرب يده على المكتب الذي يجلس خلفه رؤوف وخرج.

بينما كان سامح خارج الشقة، حضر رؤوف إلى شقة نادية، كان غليظ القلب عصبي المزاج قال لها:

- أنتِ يابنت الخدامة يا زانية إن لم تتركي سامح أو يصيبه أي أذى سوف أنتقم منكِ أشد انتقام.

تركها، أجهشت بالبكاء، بعد لحظات حضر سامح، مسحت دموعها، أصابها دوّار في رأسها، وجدها مستلقية على فراشِها سألها عن حالها لكنها لم تخبره بما جرى خوفاً مِن المشاكل، أخبرته بأنها مريضة، تقيّأت، اصطحبها إلى

الطبيب، بعد الفحص والتحليل تبين إن نادية حامل، فرح سامح بداخله لكنه استرق ابتسامه مُزيفة.

تمخض الصباح عن ليلٍ بارد وقطرات الندى قد انتشرت على زجاجِ نافذتهما، مضت الأيام والشهور، انقطعت أخبار أهله، طفل المستقبل سوف يطأ الأرض كل ذلك بعث في نفس سامح شعور غريب بالحنينِ إلى أهله الذين تركوه ليخبرهم بالمولود الجديد ليستعطف وينال رضاهم.
ذهب إليهم، اقتَرَبَ مِن الدارِ، وقف وقفة الغريب الذي غاب عن أهله ورجع إليهم عينيه بدتا كزورقٍ يغرق في مياه مالحة والأرض التي تحته خضراء، أغصان الأشجار قد خيمت على شباكِ غرفته التي تطل على الحديقة، سار ببطء ليعرف ما حلّ بأهل بيته الذين لم يسألوا عنه خوفاً مِن رؤوف وسطوته عِندما دخل رأى إحدى الأرجوحات لازالت مُعلقة بين أحضان الشجر بكى، وضع يده على وجهه جلس كانت ذكريات الطفولة ووجه أمه الدقيق يطلُ عليه، كلامه مع أبيه، مزاح شقيقه رؤوف ولعبهما في تلك الأرجوحة التي تتمايل كتمايل الزمان بأحوال الناس وأذواقهم.
استنشق الهواء بقوةٍ، طرحه بتنهدِ التفت يميناً ويساراً كأنه أول مرةٍ يرى الدار، نَظَر إلى شجرةِ المانجو التي تتشابك أغصانها عالياً كتشابك العشاق تلك الشجرة التي كانت شتلة صغيرة جلبها والده مِن موطنِها الأصلي مِن

مدينةِ (شَندي) عندما ذهب إلى الهند بسفرةٍ سياحية رغم إنها كانت موجودة في مصر حيث يُقال بأن بطل مصر القومي إبراهيم باشا[10] هو أول من أدخل المانجو الهندي إلى مصر وكان عام **1850** وزرعها في حدائق قصره بجزيرة الروضة، حملت في أحضانِها وساقها كل ذكرياتِ الطفولة، تواريخ الميلاد، مواقف حزينة ومفرحة، وصل إلى الباب، تلمسها بيديه كانت مزخرفة بنقوشٍ فرعونية يُغطيها اللون الأسود، ضرب جرس الباب، كرر المحاولة ثانية، وضع إبهامه الأيمن ضاغطاً على الزر وهو يحدث صوت موسيقى عربية أصيلة.

كان خائفاً ووجهه شاحب، ضربات قلبه تتعالى، لم تفتح الباب انتظر قليلاً، ضغط الزر مرة أخرى، سمع صوت كانت امرأة ظنَ بأنه يعرف صوتها نظرت إليه، وصرخت يا حبيبي يابني يا سامح، كانت المربية التي قضت كل أيام عمرها معهم وتعرف كل شيء.

-صباح الخير.

- صباح الخير.

فرت دمعة صغيرة مِن عينيّه كان بالأمس سيد البيت .

_ تفضل يا قلبي.

[10] إبراهيم باشا:هو قائد عسكري مصري ولد عام 1789م في اليونان وهوإبراهيم باشا بن محمد علي باشا بن إبراهيم آغا الابن الأكبر أو يقال المتبنى لوالي مصر محمد علي باشا قادة حملة عسكرية ضخمة على وسط الجزيرة العربية وقضى على الدولة السعودية الأولى وله حملات كثيرة توفى عام 1848م في القاهرة، مصر

دخل الدار يحدق بعينيه القلقتين إلى أعلى الجدران التي تُزينها ثُرية كبيرة مِن الكريستال الأبيض، مصابيح كروية، خفض يده على منضدةٍ مِن الصاج عليها تمثال فيه رسوم للإهرامات المصرية القديمة، رفعه بيده كان والده قد اشتراه عندما كانا في سفرٍ إلى أهراماتِ مصر القديمة مِن أحد المحلات وهو برفقته، تركه، سار خطوتين، نظر إلى صورةٍ مُعلقة في إحدى الجدران لعائلته كلها في إحدى حفلات عيد ميلاده، استمع إلى موسيقى عازف الليل للموسيقار الياس الرحباني[11] الحزينة ...

بدت الدموع تنهال من عينيّه المتورمتين كانت الخادمة لحظتئذ تنظر إليه بحزنٍ التفت إليها:

_ نادى لي أمي وأبي وأخي مشتاق إليهم.

أبعدت وجهها عنه ولوّت عُنقها، حاولت الهرب من سؤاله.

_ إن رؤوف بالحمام.

_ أمي وأبي أكيد في غرفتهما أرجوك ناديهما لي .

سكتت وبانَ الحزن في عينيّها نادى:

_ أمي... أبي.

نظرت إليه بحزن، غاص رأسها بين كتفيّها، أردفت.

_ البقاء في حياتك.

[11] إلياس الرحباني: هو إلياس حنا الرحباني موسيقي (ملحن وموزع) وكاتب أغاني وقاد أوركسترا من لبنان ولد في قرية أنطلياس في محافظة جبل لبنان عام 1938م

ارتبك، تلعثم، أصبحت حدقتاه كأنهما قطعة من الزجاج الأسود التي لا تشع إلا الظلام لم يحمله جسده، سقط لكنه أسند يديه على ركبتيّه وعينيّه اغرورقتا بالدموع دنت منه.

_ الأعمار بيد الله.

في تلك الأثناء سمع وقع أقدام على السلالم التفت، رؤوف نزل ببطء نظر إلى سامح فالتقت عينيّهما، نادى:

_ سامح.

_ رؤوف

اقتربا من بعض، تعانقا والحزن ثالثهما.

_ لا تبكِ الأعمار بيد الله.

أعقف يده حول كتفيّه وسارا سوية حتى جلسا، لا تزال عينيهما تذرفان الدموع وقد خيمّ عليهما الصمت وسامح ينظر إليه حتى أصبحت عينيّه مشعتين باكيتين حائرتين تقولان أشياء كثيرة وعتاب دون كلمات.

_ يا رؤوف إن ناديه حامل .

انتفض، قطب جبينه، تسمرت عينيّه، وقف .

_ ماذا تقول هل تعرف إن أمك وأبيك ماتا بسببك إن لم تترك بنت الخادمة لا أنت أخي ولا أعرفك.

_ حسبت أن الأيام غيّرتك يا رؤوف.

ترك الدار، صطفق الباب خلفه بقوةٍ، انقطع كل أمل في الحياة انخرط في شوارع مصر القديمة، شارع محمد علي وشوارع أخرى حتى جَنَ عليه الليل كانت أفكاره مُشتته الدنيا بدت كأنها كرة تتقاذفها الصبيان، الحياة شجرة يابسة تعبث بها الفصول، أحس بتعبٍ في قدميّه ودوّار في رأسه رجع إلى شقته ليستلقي في فراشه كان متألماً يتعالى الحزن من أعماقه بينما نادية تنتظره بلهفةٍ وحرارة، همّت بالسلام والقبْلات، لم يرد عليها، توجه إلى غرفته.

_ خير يا سامح.

لم يحدثها، ألحت عليه، حدثها بما جرى وإنكار رؤوف لولده حاولت أن تخفف من حزنه، طلبت منه أن يأكل بعض الطعام لكنه رفض، اضطجع على السرير استلقت بجواره وأصبحا لصيقين جسداً واحداً، أحست بحرارته كالهيب يداوي كل جراحاتها وآلامها لكنه أدار ظهره لها، ارتفعت حرارته كانت تحس بأنفاسه في أعماقها حتى غرق في النوم، رفعت رأسها، نظرت إليه، لكن الأفكار لازالت عالقة في مخيلتها تجترها بألمٍ ومرارة في النهاية استسلمت لسلطان النوم.

كان الصباح جميلاً بثيابه الصفراء الزاهية يزف الأمل بزقزقة العصافير ونسمات الهواء العطرة، بدأت نادية تحس بالضوء من تحت جفنيّها، أفاقت، فركت عينيّها براحة يديها الناعمتين كانت لصيقة بجسد سامح الجذاب، وضعت أناملها على كتفه:

- سامح يا سامح يا حبيبي.

إن وفاة سامح كان صدمةً كبيرة ليّ فهو أبي وأمي وزوجي وكل شيء في حياتي ودونه لا طعم للحياة وبعد إن ساعدني عبد الغفار الذي يسكن في الشقة المجاورة لشقتنا في حمله للمستشفى وانتهت مراسيم الدفن ولم يعرفوا أهله بالخبر.

تركت الشقة وَذهبت إلى أهلي وبعد شهر جاءني المخاض وأحسست بوجود سامح الذي كان ينتظر اللحظة ليرى ابنه كانت الولادة عسيرة جداً وأخبرني الأطباء ربما يموت المولود لكن صرخة الطفل قد تعالت في صالة المستشفى لابني نادر كما كان أبيه يُريد أن يُسميّه احتجاجاً على الحياة التي أبصرتها عينيّه البريئتين يبكي بكاءً عالياً هبط من الجنان إلى الجحيم من الفناء الواسع إلى قارورة صغيره مليئة بالأفاعي والأقنعه الزائفة والروائح النتنة، وضعته في أحضانها وبكت مع بكائه.

بينما كانت الشمس تضع آخر قُبْلاتها على سعفِ النخيل كان والده عبد الله في الحِلّة يقضي بعض الوقت على ضفاف الشاطىء للترويح عن نفسِه وملأ رئته بهواءٍ عذب نقي يأتي عبر تيارات المياه الجارية لنهر الفرات الذي يشعره

بطمأنيةٍ ونشوة، بدأ يفكر بكلام ولده علي الذي اشتاق إليه ولطالما تحدث معه عن الاختلافات والخلافات المذهبية بين الطوائف والملل وكلٌّ يعتبر نفسه الناجي الوحيد، نظر إلى السماء الزرقاء الصافية وسرب الطيور المُحلقة عالياً يتقدمهم قائد يمد جسده إلى الأمام كرأس رمح، قَلبَ أوراق حياته التي خطها بيديه ومسَحَ منها الكثير رغم بقائها عالقة في خياله، سقط من نظره العديد من الشخصيات وانطبعت شخصيات أخرى لكن كل مرة مع مرور الزمن يكتشف زيف تلك الشخصية التي كان يؤمن بها حتى وصل بيه الحال إلى عدم تقبل ما لا يدخل في عقله إلا وفق دليل وصار يهذب ويقص الكثير من الشراشيب التي كانت عالقة في أذيال ملابسه ويدخل في عُزلة أفكاره التي يعتبرها نتاج عُمره الطويل الذي قضاه في حُقَبٍ سوداء وأنظمة متقلبة، لم ينسَ أبداً كيف كان الإقطاعيين يتصرفون مع والده الفلاح والآخرين عندما يأخذون كل المحاصيل ولايتركون إلا الفتات منها تحت سطوة الحكومة ولايردعهم رادع وكأنهم ملوك وحياة البؤس التي كانوا يعيشونها وكيف كان الجيش لذي خَدم فيه أكثر من خمسة وثلاثين عاماً والتقلبات السياسية وزعامات تتنازع على السلطة بينما الشعب يتلوى ألماً لضنك العيش ومرارة الحياة وكيف تمت الإطاحة بالنظام الملكي في انقلاب عسكري وإعلان الجمهورية وتولي الزعيم عبد الكريم قاسم رئاسة الوزراء في **14** تموز **1958** كان آنذاك في

العشرين من عُمرِه عندما زارهم في قطعات الجيش في البصرة تحت هتافات وأهازيج تمجده وتلعن الملكية وهو يتوعد بحياةٍ كريمة للشعب وكيف مرت الأيام والشهور والسنين كرياح الخريف ونسماته المتقلبة التي تُطارد أوراق الأشجار على الأرصفة وبين الأزقة والطرقات فهو لازال يتنقل من ثكنة عسكرية إلى أخرى، تدهورت الأمور في البلاد عن طريق مؤامرات حيكت ضد عبد الكريم مما اضطر إلى الاتصال بعبد السلام عارف في مبنى الإذاعة عن طريق الهاتف: قاسم : عبد السلام انتصرتم وانتهى دوري وأنا أريد أن أرحل خارج العراق حقناً للدماء، أعطوني كلمة شرف. أجاب عبد السلام: والله يا كريم ليس بيدي بل بيد الإخوان مجلس قيادة الثورة وهو الذي يقرر، قال عبد الكريم: تذكر أني حفظت لك حياتك وغفرت لك كل ماقمت به تجاهي وتجاه البلد، عبد السلام قال: هذا خارج الموضوع استسلم وسنحاكمك، استخرجت جثة عبد الكريم من القبر ووضعت في غرارة اثقلت بكتل من الحديد الصلب وألقيت من فوق جسر ديالى في نقطة اتصال بغداد سلمان باك وعند احتلال مكتبه في وزارة الدفاع عثر على مستندات مفادها أن الرجل كان يوزع راتبه على العوائل الفقيرة، أُعلن في **9** شباط **1963** خبر الإطاحة بعبد الكريم قاسم في انقلاب لحزب البعث، ليصبح عبد السلام عارف رئيساً للبلاد لكن في نفس العام **18** تشرين الثاني أطاح عبد السلام بحكومة البعث إلا أنه لم يدُم في السلطة حتى قُتل

في 17 نيسان 1966في حادث تحطم طائرة مروحية واستلام شقيقة عبد الرحمن عارف قيادة البلاد في 13 إبريل من نفس العام والانقلاب السريع الذي قام به أحمد حسن البكر ليعلن نفسه رئيساً للبلاد في 17 تموز عام 1968 حتى استمر الحال بتلك التقلبات السياسية حتى خلف الرئيس أحمد حسن نائبه صدام حسين في 16 تموز 1979 كل السنين التي عاشها في العراق كانت حروب وفتن وصراعات سياسية ومذهبية ولم تختلف عن السنين التي كان يتأمل مع غيره من أبناء الشعب حياة كريمة إلا أنه سرعان ما تحولت حكومة صدام حسين إلى ساحة حرب ومنشآت للسلاح وتجهيزات عسكرية أثقلت كاهل الناس بالرسوم والضرائب لخوض معارك طاحنة مع إيران والذي كان عبد الله يشهد كل يوم جنازة شهيد أو أكثر ملفوف بالعلم العراقي كل ذلك جعل لدية خبرة كبيرة بأوضاع البلد اقتصادياً وسياسياً لا سيما أنه كان كثير القراءة رغم كبر سِنه وبدأ يقارن تلك الحياة والأوضاع التي يعيشها مع السنين السالفة.

بدأ ابني نادر يخطو الخطوة بعد الأخرى ويبتسم وينادي ماما ويتعلق بيد جده ويظنه أباه وكانت عائلة ناديه ظروفها الماديه صعبه وعسر في الحال المعاشي دفع أم ناديه لتهذي بكلمات توحي بأن هذا الطفل لاذنب له أن

يتربى بعيداً عن دار أجداده، طلبت من نادية أن تأخذه إلى بيت أبيه الذي له حق فيه وتخبرهم بوفاة سامح فرفضت ذلك.

تعاقبت الفصول وجاءت نُذر الخريف بدون مُقدمات أو ملصقات على الجدران وبدون قرار يجتمع عليه بالتصويت بالبرلمان يتبختر بمزماره الفضي وسط الأحزاب والجغرافيين والجيولوجيين ليشق وجه الصيف الحار ويلبد السماء الصافية ويسحب غطاء الرمال والأتربه بوجه النجوم المضيئة المتلألئة وتنحني له قامات النخيل وتتعانق الغصون العالية فوق الأشجار فتتجمع ذرات الأتربة على شباك غرفة نادية التي كانت حينها تنظر إلى الطبيعة المتقلبة المتلونة والخوف والقلق قد أزال منها النوم فتينك الأفكار التي كونتها كلمات والدتها قد أيقظت في نفسها شعور غريب بالمستقبل القادم ومصير ولدها نادر.

في الصباح ألبست ابنها لباساً جميلاً وتوجهت إلى دار رؤوف التي بدت عند وصولها غريبة قاحلة حزينة سارت ببطء وخوف إلا أن نادر هو ابن ولدهم المُدلل قد خفف عليها التوتر، طرقت الباب بهدوء فلم يرد أي شخص ورفعت يدها صوب الجرس وضغطته بإبهامها وهي تحمل نادر بيدها اليسرى وتنظر إليه بعد فينةٍ وأخرى ففتحت الباب امرأة كبيرة كانت هي المُربية التي عَرفتها طيلة تلك المدة امرأة حكيمة عاقلة أخذتها بالأحضان لكنها أرادت أن تقنع نادية بأن رؤوف سبق له وأن تشاجر مع سامح بسبب زواجكما وأنها تظن بأنه لا يُرحب بها، إلا أنها طلبت مقابلته لتشرح له كل

الأمور، سمحت لها، دخلت نادية إلى الصالة ووقع بصرها على صورة سامح معلقة على الجدارمع عائلته، حبست دموعها ونادتها المُربية.

_ تفضلي، وأشارت إلى الكرسي ذو التاج من الخشب الصاج، جلست وهي تُداعب شعر ابنها بيديّها وفي تلك الأثناء حضر رؤوف يرتدي معطفه البُنيّ الطويل ذو الأزرار الكبيرة وسيجاره بيده، تقدم إليها وكأنه يتفحصها من رأسها إلى أخمص قدميّها وقفت وردت عليه:

_ كيف حالك يا رؤوف.

_ أهلاً، قالها بازدراء

نظرت إليه وإلى طفلها وأشارت بيدها:

_ هذا ابن سامح، رد باستهزاء

_ ابن سامح، أدار وجهه، أين أبوه؟

خفضت عُنقها واختنقت بعبرتها وقالت:

_ حياتك الباقية يا رؤوف إن سامح فارق الحياة.

قطب رؤوف جبينه... صرخ.

_ اخرسي يا خائنة قتلتيه.

_ والله العظيم يا سيدي إني أحبه وأتيت بالولد ليتربى معكم.

صرخ بعصبية.

_ يا أبو الهول ويا بكري، فأتيا يهرولان وكأنهما يقفان خلف الباب.

_ نعم يا سيدي.

_ خذا الطفل من الفاجرة، وأشار بيده إليها، صرخت وابتعدت عنهما.

_ أرجوك يا رؤوف افهمني.

انتزعا نادر بقوةٍ وهو يصرخ ويبكي دون رحمةٍ وأعطياه إلى رؤوف.

_ خذا الفاجرة إلى المخزن.

وتوجهها يسحبانها من ثوبها بقوةٍ وهي تصرخ، حاولت الإفلات منهما لكن السائق أبو الهول كان ضخمَ الجثة أسود نتن قبض عليها ورمى بها إلى المخزن كأنها فأر صغير قد وضع في قفص أصبحت حبيسة أربعة جدران تجتر الألم والحسرات دون طعام.

وفي اليوم الثالث دخل عليها رؤوف مع خادمه والسائق وهمّت إليه وتوسلت أن يعيد لها طفلها فأمرهما وأشار بطرفِ عينه وغمزّ بضحكةٍ وسخريةٍ وانتقام وأنهما فهما ما كان يقصد من ذلك فهجما عليها كوحشين مفترسين يمزقان فريستهما الضعيفة وهي تصرخ.

_ اتركوني يا أنذال.

كانت ترفرف تحتيهما كطيرٍ مذبوح فمزق أبو الهول ملابسها وكشف صدرها وبانّ بياض ثديها ومسك ساقيها وابتلع التنين القمر ساعة الانكسار ونهض وهو يلهث ويمسح فاهه وأزراره قد خلعت ورمى الخادم نفسه عليها وهي تأن أنيناً موجعاً متقطعاً ورؤوف يضحك ويتلذذ بالمنظر القذر وهي تغتصب أمام عينيه، وهي تدفن رأسها بين قدميها. فأنهما بعد

فعلتهما القذرة تركاها صريعة الألم والذلة لضعيفةٍ لا تقوى على شيء سوى البُكاء قفلا الباب وذهبا

وفي اليوم التالي حضر رؤوف وعندما توسلت به لكي يعيد نادر صرخ بوجهها.

_ ألا تذكرين وعدي لك عندما حذرتك بأنه إذا حصل أي مكروه لسامح سوف أجعلك تعملين في كل ملاهي مصر فإذا أردت ولدك وافقي على ذلك

صرخت بوجهه وتركها وذهب ولكنه عاد إليها في نفس الليلة وكانت لوعة الانكسار والضعف قد بدت على جسدها وذاب قلبها حنيناً وشوقاً إلى طفلها الوحيد فكان صوت ابنها يرنّ في أُذنيها ويخرج من أركان الجدران التي تحيط بها، غريزة الأمومة لا تُضاهيها أية غريزة، عندما شاهدته رمت نفسها بين أقدامه وكأنه حيوان أسطوري قد نفض التراب من عليه وأفاق للانتقام.

طلبت منه أن يعيد ابنها نادر لكنه كان مُصِراً على الشرط الذي وضعه عليها، وافقت تحت وطأة الضعف ومشاعر الأمومة التي تتفجر في أعماقها لقاء رؤية ولدها ساعة كل يوم فاصطحبها معه بعد أن جلب لها ولدها، ركنَ سيارته الصالون السوداء وارتدى زيّه الرسمي وتوجه بها إلى إحدى الحانات للخمر والدعارة حيث له علاقة بصاحب الحانة، اتفق معه على ما يريد وتركها وذهب لأن الكثير من أصحاب الحانات والملاهي يخشون رؤوف كونه ضابط مباحث وله علاقات واسعة بشخصيات الدولة ولا

يستطيعون رفض طلبه، يأخذ منهم الأتاوي لتمشية أمورهم وإن ذلك يتفق مع مصالحهم الشخصية والمادية .

كان صاحب الحانة طويل الشارب عيناه غائرتان وشفتاه متهطلتان عليهما آثار التبغ والخمر طلب من نادية أن تقوم بفتح قناني الويسكي في النهار وقد أنهت يومها بالعمل مع (شِلّة) الخَمّاريين وأعياها كثرة المغازلات والتحرشات طوال اليوم لكنها لم تعطهم المجال حتى ينالوا من جسدها، وفي نفس الليلة ذهبت إلى غرفتها لتستحم وتريح جسدها المتعب، سمعت طرق الباب جففت شعْرها بسرعة وخرجت كان صاحب الحانة قد دخل غرفتها ومعه أحد الشخصيات البارزة في الدولةِ وهزَّ رأسه للزبون بالبقاء معها كونها وجه جديد وجذابة للزبائن، اقترب من نادية ووضع يده عليها لكنها اشمأزت منه وطأطأت رأسها وبكت حاول تقْبيلها فابتعدت عنه، قطب حاجبيه وعندما خرج سمعت جدال وصياح بين الزبون وصاحب الحانة وبعد لحظات خيَّم فيها الصمت والهدوء عاد لها صاحب الحانة بمفرده وزجرها بكلامه وقال لها بالتهديد:

_ سوف أخبر رؤوف.

_ لا أرجوك سيحرمني من ولدي إلى الأبد ساعدني. هزَّ رأسه بالنفي.

توسلت إليه ولكن لا فائدة وبدأ السؤم يفتك بها في أروقة النقاش الممجوج الذي لإثبات ولا جدوى وينتهي حيث بدأ في دائرة فارغة مثل

حوارات وهميّة تقوم بين أطراف متنازعة كلهم يحصدون سنابل فارغة دون أية بذرة في أرضٍ قاحلة.

كان صاحب الحانة مخموراً لا يطيق الكلام سوى مُداعبة الجُنيهات بيديه أراد الخروج لكنها مسكت بطرف بنطاله، هزّتْ رأسها بالموافقةِ ابتسم صاحب الحانة وانصرف، بعد دقيقة كان صاحب السمو يقف خلف الباب، دخل إليها حاملاً قنينة ويسكي، سلم عليها فلم ترد وضع قنينته على المنضدة، صبَ في كأسين وقدم واحداً لها لكنها رفضت (كَرَعَ) الأول وعاد إلى الكأس الثاني ورشفه دفعةً واحدةً ومسح فمه بطرفِ سترته كانت تبدو عليه الغلاظة ورقبته تغوص بين كتفيه ووجهه كأنه رأس مطرقة، وحاجباه كأنهما قد نُحتا في صخرةٍ فاقترب منها وهي لا تنظر إليه فقْبَلها من خدِها وعيناها تمتعضانه وزّمت فمها وأدارته، رجع إلى الخلف رمى سترته وأرخى ربطة عُنقه، أزاحها وراء كتفه وفتح حزام بنطاله والأزرار وفتح قميصها فاشتبكت أزراره وسحبه بقوة حتى تمزق وبدأ يلثم صدرها بلعابه النتن ورائحة الخمرةِ تفوح من فمه أبعدت وجهها عنه واستسلمت له دون كلام وكأنها دمية ترضخ لمداعبها يعبث بها دون شعور منها ودموعها تنزل على خديها وهو يتلذذ بفعلته كالذئب الذي يتمتع بعذابِ فريسته حتى أنهى حركاته الآلية وهي على فراشِها تبكي وتأنّ ولا أحد يعرف ما في داخلها من شعور وكأنها في عالم خارج حدود الكرة الأرضية.

في الصباح استيقظت وآلام في رقبتها وجسدها ورائحة الخمر تتعالى من جسدها إثر الليلة الماضية، توجهت إلى الحمام، نظرت إلى وجهها في المرآة المعلقةِ من ركنين وتلمست وجنتيها المحمرتين وشعْرها منفوش كطيرٍ قد تخلص من شبكة الصيّاد بأعجوبةٍ ونظرت إلى رقبتها التي عليها آثار مخالب رجل الدولة المسؤول حدثت نفسها:

_ هذه ليست أنا! نعم لستُ أنا.

أخذت تحرك يديها أمام وجهها في المرآة وأحست بالغربةِ في وطنِها التي لا تملك فيه أي شيء حتى نفسها أطالت النظر، بصقت على نفسِها، ضربت خديّها بباطن كفيّها، جلست تبكي مستسلمة للقدر من أجل نظرةٍ واحدةٍ من طفلِها العزيز وبعد لحظات سمعت صوت.

_ نادية نادية ابنك نادر.

خرجت مسرعة كان طفلها يسير ببطء كأنه فرخ بط يتمايل يميناً ويساراً أمام رؤوف هرولت إليه وضمته بأحضانها وهي تبكي كان النادل وصاحب الحانة رغم قساوتهما قد تألما لحالتها كثيراً إلا أنّ رؤوف لم يهزّه الموقف وكأنه تمثال قد نُصب في أحد أركان الطريق وهو يهزّ يده باستهزاء، ترك الطفل بعض الوقت وأخذه منها وهي لازالت تحنّ إليه لكنها تخشى الضغط على رؤوف.

استمر الحال شهرين وبعدها انقطع رؤوف عن جلب ابنها نادر طلبت من صاحب الحانة الاتصال به لمعرفة سبب الانقطاع فاتصل به وأخبرها بأنه

مريض وسوف يحضر ابنها حال شفائه وبعد فتره أصابها قلق وخوف، توجهت إلى دار رؤوف وهي تلهث خائفة، ضغطت جرس الباب، انفتح بوجهها كان البواب يعرفها وقد أخبرها بأن رؤوف قد سافر مع ابنك خارج البلاد لكنه كان في الدار وقد أخبر البواب بذلك، رجعت خائبة تذرع الشوارع في الزمالك وتطرق الأبواب كقطه أُخذ منها صغارها ورجعت إلى الحانة، شربت دون وعي، فكرت بالانتحار.

ذهب عبد الله إلى السوق الكبير في مدينة الحِلّة حيث مقهى أبو سراج القابعة على ضفاف نهر الفرات من طرف الجسر العتيق الضيق الذي يربط جانب الحِلّة الكبير بالآخر الصغير التي طالما يجلس فيها صديقة أبوجابر الذي افترق عنه عند الإحالة إلى التقاعد أو ربما يجده في مقهى السدير الرومانسي، أو مقهى الجندول أو السدير لكنه وجده في مقهى أبو سراج يحتسي الشاي في إحدى زوايا المقهى عندما شاهده يدخل احتضنه بقوةٍ، جَرَهّم الحديث إلى تلك الأيام التي كانا فيها أيام الخدمة في الجيش والعراقِ، وأصدقائهم الذين فارقوهم وانقطعت أخبارهم، تبسم عبد الله ضاحكاً يُمازح أبوجابر قائلاً: أنت مزيدي الأصل.

-تفتح وجهه بابتسامة جميلة قائلاً: أنا من الجامعين وهي أصل الحِلّة ويُقال أنها كانت موجودة قبل أن يتم بناءها من قبل الأمير صدقة بن مزيد

في أواخر القرن الخامس الهجري حيث كانَ بنو مزيد يسكنون في منطقة النيل لأن منطقتنا كانت تمتاز بالحصانة والمنعة فقد وصفها ياقوت بقوله: (وكانت أجمة تأوي إليها السباع)، وهي حلة بني مزيد.

- هل كانت فيها حركة للبيع والشراء مثل هذا الزمان.

- كانت الحركة التجارية نشطة في حينها أكثر من كل الأزمنة لكثرة البيع والشراء لاحتوائها على المرافق المدنية والصناعات الضرورية والذي زاد الحركة فيها كونها طريقاً لقوافل الحجاج الذاهبة من بغداد إلى الكوفة ثم إلى مكة وبالعكس، وكذلك كان نهر الفرات صالحاً للملاحة لذلك اتخذته السفن التجارية المحملة بالبضائع طريقاً لها تشق عبابه.

- أبوجابر هي حِلّة[12] أم حُلّة كثيراً ما يختلف الناس في النطق بهذا الاسم.

- الحلة بضم الحاء وتشديد اللام سماها علي بن أبي طالب بهذا الاسم فقال: (هذه حُلّة من حُلل الجنة) لأنها كانت جميلة وجاءت السنين والأيام حتى أصبحت حلة بكسر الحاء المهملة وتشديد اللام وتقال على عدة أشياء منها القوم النزول وفيهم كثرة أو شجر شائك أصغر من العوسج أو علم لعدة أماكن، كذلك أُطلق عليها الحلة السيفية أو المزيدية أو حلة بني

[12] الحِلة: هي مدينة عراقية ومركز محافظة بابل بناها صدقة بن منصور أمير إمارة بني مزيد عام 1101 م وتبعد عن بغداد نحو 100 كم وعن النجف 60 كم ، كما أنها تقع بالقرب من مدينة بابل الأثرية والتي تعد من أهم المناطق التاريخية القديمة في العالم.

مزيد وقد اتخذتها الدولة الجلائرية عاصمة لها بعد بغداد عام **812** هجري في عهد الدولة (قراقرنيلو) الخروف الأسود.

دخل الخادم أبو الهول الدار بعد إرساله من قبل رؤوف لجلب بعض الأغراض المنزلية، تفاجأ بخروج رؤوف من غرفة نومه بهيئةٍ غير لائقة تركة وذهب إلى مكتبه أما هو دخل مسرعاً إلى غرفته، وجد زوجته نصف عارية وعندما سألها أنكست رأسها باكية وهي تقول: رؤوف ...اختنقت بعبرتها، فهم ماذا فعل رؤوف مع زوجته، توجهه إلى مكتبه بحالةٍ جنونية إلا أن رؤوف قطع عليه تساءله... لماذا تدخل علي بهذه الطريقة... يا رؤوف أنت أحقر إنسان عرفته...

-أخرج من داري أنت وأهلك أنا لم أفعل أي شيء.

-سأنتقم منك يا جبان. خرج أبو الهول من الدار يجر أذيال الخيبة والندم، تذكر ساعتها البريئة نادية وقيامه باغتصابها بالقوةِ.

أما رؤوف فقد استمر بطيشه واستهتاره والتلاعب بمشاعر الآخرين مستغلاً نفوذه وسطوته، طلب من صديقة ومساعده ملازم رأفت تناول وجبة العشاء في داره، خرجا سويةً في سيارته الخاصة التي بدأت تبتلع الخطوط المرورية والسيكارة بيده اليسرى يرتشف دخانها بقوة ويخرجه من أنفه، تحدثا عن قوائم مشتريات تعود للمديرية وكيفية وضع الأسعار

وتناسبها مع سعر السوق ومن يكون مسؤول لجنة المشتريات وعن قضايا تخص متهمين هاربين ووضع خطة للقبض عليهم إلا أن رؤوف أفهم صديقه بأنه سوف يتم التباحث عنها بعد تناول وجبة العشاء في داره، السمك البحري المشوي كان الوجبة المفضل لملازم رأفت، عندما وصلا الدار ترك رؤوف صديقه في صالة الدار وتوجه إلى مكتبه وجلب كافة الأوراق التي يروم توقيع الملازم عليها، بعد تقديم الطعام والرائحة اللذيذة التي تتسلل بهدوء إلى منخريه بالإضافة إلى قنينة ويسكي قد وضع فيها رؤوف حبوب مخدرة، انتهت الطبخة الشيطانية بنوم ملازم رأفت، مَسَح رؤوف أصابع الملازم وبدأ يضع بصمته وتوقيعه على كل الأوراق الضرورية الخاصة بمشتريات غير أصولية بمبالغ كبيرة، بعد ساعة فاق الملازم وقال: يبدو أني احتسيت كمية كبيرة من الويسكي!.

-نعم فقد شَربت الكثيرة وحاولت منعك ولكنك لم توافق.

قام رؤوف بإيصاله إلى داره وفي اليوم التالي جاءت لجنة تدقيق للمستندات والأوراق الرسمية التي تتعلق بالمشتريات وغيرها من المصاريف فقد اكتشفت اختلاس مبالغ كبيرة من الدائرة كان رؤوف قد استولى عليها بطريقةٍ شيطانية دون أي دليل وكانت كل الأوراق ببصمة إبهام الملازم رأفت، وجهت له أصابع الاتهام وفق أدلة لا تقبل الشك، كان رؤوف يتفرج ويسمع كلام اللجنة أما الملازم فقد صعق من شدة الصدمة، نَظر إلى رؤوف

طالباً مساعدته إلا أن رؤوف تبسم وقال: أنا لا أعرف عن لجنة المشتريات وأنت مسؤولها.

-يا رؤوف أنا لا أعرف عن هذه الأوراق أي شيء ولم أقم بتوقيعها أو البصمة عليها.

نكرَ الملازم بصمة إبهامه ونفى علاقته بالموضوع إلا إن لجنة التحقيق أخذت كل الأوراق لعرضها على الأدلة الجنائية للتحقق من صحة بصمة الإبهام وهل تعود إلى الملازم من عدمه. مضت عدة أيام والملازم موقوف على ذمة التحقيق وبعد بيان نتائج الأدلة الجنائية تبين بأن البصمة تعود إلى الموقوف، تمت إحالته إلى المحكمة وفق تهمة ثابتة قانوناً من أدلة الإثبات التي لا تقبل الطعن ولاسيما بأن الملازم سلك كافة طرق الطعن بتقرير الأدلة الجنائية لكن كل التقارير جاءت متطابقة، استذكر وجبة العشاء التي دُعيّ إليها من قبل رؤوف وتقديم الشراب له وفقدانه للوعي والمستفيد من كل ذلك، تيقن بأن رؤوف وراء تلك اللعبة القذرة، طلب قبل مُحاكمته أن يأتي له رؤوف لمواجهته بالموضوع، التقى الاثنان في غرفة المواجهة...

-رؤوف أنت من فعل ذلك وإني بريء!

- كل الأوراق فيها بصمة إبهامك وتوقيعك، أنا لم أفعل شيئاً.

-حرام عليك أنت تعرف نزاهتي!

-أين الأموال التي اختلستها يا رأفت؟

-بريء والله وسوف أنتقم منك أشد الانتقام!

في محاكمة علنية حاول المتهم رأفت الدفاع عن نفسه رغم توكيله للقضية من قبل محامي بارع إلا أن الأدلة كانت كافية لإدانته، بعد مداولات ونقاشات تم الحكم عليه خمس عشرة سنة مع الأشغال الشاقة، صرخ بأعلى صوته.. بريء.. بريء.. الله ينتقم منك يارؤوف.

رمت الشمس أولى خيوطها الذهبية على رؤوس المباني العالية وقمم الجبال وأوراق الأشجار كشبكة صيّاد ماهر يزجُ فيها صغار السمك وكبيرها، فرَكَ عبد المجيد المصري عينيه بباطن كفيّه ونظر من خلال شُباك غرفته...
قال: الشمس في بلادي أجمل لأنها تربتُ على أكتافُ أولادي وتعطيهم الدفء والراحة وتطبع قُبْلاتها على أجساد الفقراء، تَلَمس ذقنه بحركةٍ غير إرادية مَن الأسفل إلى الأعلى تبدو لحيته طويلة، تَبسم بنشوةٍ تسربت إلى كافةِ أنحاء جسده عندما تَذكرَ أول أيام التحاقه بالجيش المصري وارتباكه وقلقه عند حضور المسؤول عليهم لتفتيش قيافتهم، وقف بالقربِ منه وضع يده على ذقنه كانت لحيته خشنة رغم حلاقتها في الليلة الماضية، صرخ بوجهه... إلا أنه برره له بأنه قام بحلاقتِها بحضور صديقه عبد الصمد الذي يقف جواره لكن لم تفلح كل وسائل الإقناع أمام سطوة العريف الذي أمر بمعاقبته بكافة أنواع العقوبات العسكرية، زحفاً على الأرض وبروك الجمل وهو نصف عارٍ...

انزاحت النشوة تدريجياً وتحولت إلى حزنٍ إثر تذكره حادثة استشهاد صديقه عبد الصمد عندما هاجمت إسرائيل مصر وسوريا وفلسطين والأردن ونتج عنها احتلال سيناء وهضبة الجولان وقطاع غزة والقدس وسميت بنكسة **1967** والذي أعلن في حينها جمال عبد الناصر تنحيه عن السلطة إلا أن الشعب خرج للشوارع يُطالبه بالعودته إلى السلطة حتى رجع بكاملِ قوته في تجهيزِ الجيش وتدريبه لستنزاف طاقات إسرائيل فكانت حرب الاستنزاف في عامي **1969**و**1970** والذي توفى فيها وخلفه نائبه محمد أنور السادات وبعد خطبة السادات انعقد مؤتمر كامب ديفيد والذي تمخض عن معاهدت السلام عام **1979** إلا أن السلام لم يدم لدى الشعب المصري أثر حادثة أغتيال أنور السادات عام **1981** وتولي نائبه محمد حسني مبارك والذي شهد عهده تدهوراً اقتصادياً وانتشر العنف في السجون مما اضطرعبد المجيد وأغلب الشعب المصري للهجرةِ إلى العراق وبعض الدول بحثاً عن فرص عمل.

أما صديقه عبد المعطي زوج أم جرجيس التي تزوجها في العراق أرسل رسالة إلى والده يخبره فيها بتحسن أموره المالية واستقراره في زواج ناجح وأنه نادم على ما فعله من قتل شقيقته وأحد أبناء قريته عندما شك بعلاقة

غير شرعية بينهما وأنه سوف يقوم بدفع الدية الشرعية وينهي الخلاف العشائري الذي استمر عقب هربه إلى العراق وأنه سوف ينهي كل شيء وطلب من والده الذهاب إلى أهل المقتول ويعرف ماذا يطلبون مقابل ذلك ويشرح لهم الحالة والندم الذي لحق به طيلة سنين الغربة، وأخبر أم أحمد بذلك وندمه وحزنه الدائم على شقيقته لكنها خففت من روعه وآلامه بأن هذه الحالة موجود أيضاً في العراق وفي كل الدول العربية وهي تعرف حالة حصلت لامرأة قتلها شقيقها غسلاً للعار ولكن تبين فيما بعد أنه قد تزوجها شرعاً وسراً، تم إحالته إلى المحكمة وقد حكم عليه عن جريمة قتل مُتعمد حيث ثبت عدم قيامها بالزنا.

قبعَ المحكوم رأفت في زاويةٍ ضيقةٍ لوحده لا يتحدث مع أي شخص، أصبح رقماً من بين آلاف الأرقام لا يُعرف إلا به، فكر بطريقة تخرجه من السجن حتى لو كلفه ذلك حياته...

-أني ميت وأعيش تحت الأرض وانقطعت عن العالم الخارجي لاحياة سوى قطع خشبية تتحرك على رقعة شطرنج.

صوت حُراس السجن سبب له حالة هستيريا وغثيان حاد وقع على أثرها ونقل للمستشفى تحت حماية مشددة، بعد أشهر من الحكمِ على رأفت انتشر خبر هروبه من السجن لتدهور حالته النفسية.

المرأة المُسنة التي كانت مربية لرؤوف عند صِغره تلقت منه أشد التوبيخ والإهانة لإهمالها في تنظيف مكتبه، انهمرت الدموع من مقلتيها، تذكرت بأنها في تلك الليلة المشؤومة سمعت شجار حاد بين رؤوف ووالده وكيف قام رؤوف بضربه والذي فارق الحياة على أثر ذلك وأُعتبرت الوفاة قضاء وقدر، جلست تتحدث مع نفسها بصوت بينما كان رؤوف يقف خلفها وسمع كلامها، وقال لها غاضباً: ماذا تقولين إني قتلت أبي؟ بكت بحرقةٍ وقالت: نعم أنت الذي قتلت أباك الرجل الطيب الذي هَدر عُمَره في تربيتك، ترك المكان بهدوء، بعد نصف ساعة عاد رؤوف خجلاً وطلب منها السماح وذكْرَها بأنها ربته عند صِغره وهو لا ينسى ذلك أبداً، قدم لها كأساً من عصير البرتقال لتهدأ أعصابها وطلب منها أن ترتاح في فراشها...

الخادم الذي قضى ليلته قلقاً وخوفاً ذهب عند الصباح إلى غرفة المربية كبيرة السِن، طرق الباب بشدة... يا حاجة! ...يا حاجة! لم يسمع صوتها، ضرب الباب بقوة حتى اضطر لكسرِها عندما دخل وجدها ملقية على الأرض، ركض مسرعاً إلى مكتب رؤوف يخبره بوفاة مربيته، حزن رؤوف ووراء الحزن ابتسامة ماكرة حيث إنه من وضع لها جرعة كبيرة من حبوب الضغط والسكر مما أدى إلى وفاتها.

في الساعة السادسة مساءً رجع رؤوف إلى داره مخموراً لا يقوى على المسير، أطلق كلمات غير لائقة على البواب التي تلقاها دون أي ردة فعل، بعد خمس عشرة دقيقة فاق البواب وهو يدعك رأسه بكلتا يديه وتوجه راكضاً إلى الدار متوجهاً إلى غرفة المكتب، صرخ باكياً عندما شاهد رؤوف مقتولاً على كرسيه والدماء تسيل من رقبته، اتصل مباشرة بالشرطة يخبرهم بحادثةِ القتل وعلى أثرِ ذلك، سمع صوت منبه سيارات الشرطة تقترب من الدار، وتحت عمليات بحث وتحري والكشف عن البصمات، تم العثور على صورة طفل مُهشمة على الأرض تم لَفها للتعرف على البصمات وقد بين البواب بأن الطفل هو نادر ابن نادية وكذلك تم العثور على هوية في ساحة الجريمة وسَكين مُلطخة بالدماء على الجهة اليمنى من جثة المجني عليه على الأرض بينما كانت الجثة بموضع الجلوس على الكُرسي، أُتخذت كُل التدابير لنقل الجثة إلى الطب العدلي التشريحي وأخذت مَسحات من الدم والبصمات في مكان الجريمة، تم توقيف البواب على أثر ذلك لأنه كان المتهم الأول بقتل المجني عليه، بعد التعمق بالتحقيق والضغط والتعذيب ولكنه نكر التهمة المنسوبة إليه ولكنه اعترف عن تفاصيل مهمة وذكر أشخاص يُشتبه بهم في ارتكاب الجريمة حيث قال البواب بأن الذي فعلها أحد الأربعة أشخاص مَن هو يا ترى! ومَن الأربعة أشخاص وكيف وصلوا! هل كانوا مشتركين بالحادث؟ أم أحدهم فعلها بمفرده! بدأ المحقق يصنت ويدوّن ملاحظاته،

صرخ بوجهه: أكمل من أول شخص حضر أولاً ؟

زوجة عبد المجيد المصري الذي أرهقها العمل وتحمل المسؤولية فقد ألحَّ أولادها عليها للخروج بنزهةٍ سياحية إلى منطقةِ الأهرام للتنفيس عن ضغوطات الحياة ومصاعبها وأخذ قسطاً من الراحةِ وعند وصولهم إلى البوابة شاهدوا مجموعة من الوفود العرب من جنسياتٍ مختلفة ومعهم المرشد السياحي وقفوا معهم والذي كان يشرح بصوت واضح: ممفيس ومنطقة الأهرام من الجيزة إلى دهشور ويعد موقع (منف) وجبانتها واحداً من أهم مواقع التراث العالمي على مستوى العالم، وكانت منف العاصمة المصرية على مدار عدة أحقاب تاريخية منذ عصر الدولة القديمة، ثم فترة من عصر الدولتين الوسطى والحديثة والعصر المتأخر وبداية عصر الإسكندر الأكبر، وتحتوي مدينة منف على الهرم الأكبر للملك خوفو الذي يعد الأعجوبة الوحيدة الباقية من عجائب الدنيا السبع القديمة وتتضمن المدينة أيضاً ثمانية وثلاثون هرماً في الجيزة وسقارة وأبو صير ودهشور وأكثر من تسعة آلاف أثر ومقبرة من فترات مختلفة منذ عصر الأسرة الأولى حتى العصر اليوناني الروماني وسجلت على قائمة اليونسكو لمواقع التراث العالمي في عام **1979**، دخلوا إلى داخل الأهرامات ببنائها الشامخ

وفق هندسة معمارية رائعة حيث إن معظم الأهرامات شيدت بالصحراء غربي النيل بحيث تغرب الشمس من خلفها لأن قدماء المصريين كانوا يعتقدون أن روح الملك الميت تترك جسمه لتتجول بالسماء مع الشمس كل يوم وعندما تغرب الشمس تعود الروح الملكية لمقبرتها بالهرم لتجدد نفسها وأن مداخل الأهرامات في وسط الواجهة الشمالية من الهرم ويرتفع مدخل الهرم الأكبر **17** متر من فوق سطح الأرض حيث يؤدي لممر ينزل لغرفة دفن الملك، أحسَ أولاد عبد المجيد بنشوةٍ ومتعة أثناء تجوالهم حتى قامت والدتهم بإعداد الطعام الذي جهزته في البيت مع كل ما يلزمها.

نَظر المحقق إلى البواب نظرة الأسد المفترس وقال: من هو تكلم؟
ارتجف البواب خوفاً وقال: شاهدت رجلاً يتلصلص من خلف أحد الدور المجاورة ويختفي وكأنه يحمل خبراً غير سار.
- المحقق: انظر إلى هذه الصورة في الهوية التي تعود إلى السجين الهارب رأفت التي وجدناها في مكتب المجني عليه، أهو ذلك الشخص الذي ذكرته؟
-البواب: نعم هو لكن لم أشاهده يدخل! وكان الذي حضر قبله شخص آخر!.
المحقق: يا مُغفل، ياغبي، أنا قُلت لك من حضر أولاً.
-البواب: إن الذي حضر أولاً! أنكس رأسه وصَمت.

-المحقق: بدأ يضرب على المنضدة ويصرخ! تكلم! تكلم بسرعة وإلا هَشمت رأسك.

-البواب: إن الذي حضر أولاً كما قلت لك صاحب الهوية الساقطة في المكتب والذي تعرفت عليه عن طريقك! ولكن بعد دقائق حضرت نادية وهي تخفي شيئاً بثيابها وكانت بحالة هستيريا، طلبت مني أن أسمح لها بالدخول إلى رؤوف لكني رفضت وزَجَرتها بقوة، ابتعدت عن الدار إلا أنها بقيت قابعة خلف الأشجار تتحين فرصة دخول إلى الدار

-المحقق: يعني أنك لم تشاهدها تدخل إلى الدار.

-البواب: نعم لم أشاهدها إطلاقاً.

-المحقق: يا مغفل كيف لم تشاهدها ووجدنا صورة طفلها على الأرض.

-البواب: أقسم بالله بأني لم أشاهدها تدخل إلى الدار.

-كيف فقدت وعيك؟

-البواب: وفي هذه الأثناء كان الخادم أبو الهول يُراقب رؤوف عندما دخل إلى الدار وكان يحمل شيئاً في كيس، حاولت منعه من الدخول إلا أن أبو الهول ضربني على رأسي ضربه، فقدت وعيَّ على أثرها.

قَصَّ البواب تلك الحادثة التي حدثت بين الخادم أبو الهول والمجني عليه رؤوف وما فعله مع زوجته وطرده من الدار.

-المحقق: إن المتهم على ما ذكرت هو الخادم أبو الهول.

-البواب: سيدي سوف أوضح لك ما شاهدته قبل الحادث وما أتوقعه

- المحقق: أعد لي كل التفاصيل بالدقة وبالوقت ..

فَكر البواب بضع دقائق وكأنه يستجمع كل ما شاهده وقال:

أربعة أشخاص حضروا مسرح الجريمة، الشخص الذي رأيته يتلصص ويتوارى خلف الجدران، ونادية، والخادم أبو الهول الذي قام بضربيّ وما يخفوه وما حضروا من أجله، كذلك قَصَّ حادثة الاغتصاب التي قام بها رؤوف مع زوجة الخادم أبو الهول والذي يكون دافع لقتله للانتقام، وكذلك مافعله مع نادية وتصرفه معها وإخفاء ولدها، وقيامه بوضع جرعة كبيرة من حبوب الضغط والسكر في كأس عصير البرتقال لمربيته والتي كان لها ولد يعمل في الفيّوم من الصعيد، وقد عرف بأن رؤوف هو السبب في وفاة والدته والذي حضر قبل الحادث بعدة أيام بحثاً عن رؤوف وكان الشر في عينيه، أما السجين الهارب فكانت دوافعه معروفة وقد حضر مسرح الجريمة في نفس الوقت، حققت الشرطة في أدَق التفاصيل، وجدت كل متهم له دوافع للقتل ولكن من حضر أولاً إلى مكتب رؤوف ومن القاتل ياترى؟ هل المحكوم الهارب رأفت الذي شاهده الخادم يتوارى خلف الجدار؟ أم نادية التي طلبت منه الدخول للحديث مع المجني عليه رؤوف! أم الخادم أبو الهول الذي تم اغتصاب زوجته من قبل المجني عليه والذي قام بضربه على رأسه! أما ابن المربية الذي قضى عدة أيام بحثاً عن فرصة لمواجهة رؤوف !

كان علي العراقي قد سمع القصة كاملة من نادية بعد إن تَبَعها إلى السلالم وأرجعها إلى شقته شفقة منه عليها والحالة التي كانت عليها عندما حملها إلى شقته.

بدا وجه نادية يتقلب متجهماً أثناء حديثها مع علي عن كل ما حصل لها أخذت الدموع تنهمر مِن عينيها السوداوين، توقفت عن الكلام، طأطأت رأسها، تحول البكاء إلى نَحيبٍ مُتقطع وأنين موجع حاول علي تهدئتها، وضعت يديها على وجنتيها الحمراوين...

- أرجوكِ يا نادية ارتاحي.

توجهت إلى الحمام، كانت دموع نادية تُشابه إلى حد كبير دموع والدته عندما تُعانقه لكنها ليست مثلها ولا أية فتاة تُضاهيها رقة وحناناً، هي مِن خلقٍ خاص طالما تعلق بثديها طوال الليل في صغره وأوسد رأسه بحجرها كان منظر الدموع يؤلمه كثيراً والأحزان قد سلكت طريقها إليه، في تلك الأثناء عادت نادية إليه، أردفت وعيناها رطبتان وجفناها ثقيلتان.

خيم الصمت عليهما وهي تبكي.

_ يا علي ابني نادر أعز من روحي وأقسم بالله إني سوف أبحث عنه في كل مكان ورفعت يدها إلى الأعلى بحركة لا إرادية أمام وجهه.

_ اهدئي الله كريم سوف لن يضيع الحق أبداً .

- عكرت يومك بهمومي . ؟

- إن ماجرى عليّ لم يجرِ على أي امرأة بالعالم .

كانت تتحدث وهي تبكي وبدت عيناها متورمتان، ذُهل من الحادث الذي سمعه، توقفت عن الكلام مجرد عبرات وزفرات تتصاعد من صدرِها وتصورها في تلك اللحظة كطفلٍ صغير يُطرح تحت الأقدام في الزحام دون أن يلتفت إليه أحد وكقطةٍ صغيرةٍ قد حوصرت في إحدى الزوايا ويرميها الصبية بالحجارةِ من كل صوب وأصبح وجه علي شاحباً وكأن الدم قد نزل إلى قدميه وأنامله تتحرك بحركة آلية إلى شَعْره وأنفه وأردف بصوت مبحوح متأثر:

_ يناديه أرجوكِ خففي من روعكِ .

_ ياعلي ابني نادر ..

_ أنت مظلومة وأنا مستعد للقيام بأي شيء لمساعدتكِ .

تكفي شهامتك ونُبلك وشرفك وطهارتك حملتني بأحضانك وأنا في حالة سُكر فاقدةً للوعيّ، لم تمسسني وتخجل مني إن هذه الأخلاق نابعة من جمال روحك ومن الأصالة العراقية البابلية العريقة.

وفي تلك الأثناء تحول قلق علي الذي لازمه طيلة فترة وجودها إلى شجاعة تدفعه أن يبذل أي شيء لمساعدتها كونها مظلومة وتناقش معها حول فكرة أو طريقة معينة، أصغت إليه وذهب لارتداء ملابسه ليخرج بصحبتها إلى ما فكرا به وجهز نفسه.

بعد أن سمع علي تفاصيل الحادث فكر في نفسه:

-قد تكون غير صادقة في كلامها..وهي من قتلت رؤوف لأنها كما أخبرته دخلت إلى مكتبه ووجدت صورة ابنها مُهشَمه... لماذا هشمها رؤوف؟ يمكن حدثت مشادة كلاميه بينهما قبل أن تقوم بقتله.آه يا إلهي لا أستطيع معرفة الأمور ..آه لو كنت محامياً .

استمهلها حتى خرج إلى مكان عام للاتصال بأحد المحامين الذين يعملون في بابل، فكر، أتصل بمن: طارق الشكري، عبد الخالق العكام، جليل ماشطة، نزار كاظم الحسن، موسى جمال، أسعد عبد الرضا، فاضل عمران الحميري، عبد الكريم حربه، سعيد الأعرجي، حكمت السبتي، كريم مغير، حميد السماوي، فلاح كمال الدين، عدنان بهية، زهير جنجول، خليل إبراهيم مصطفى، بدر القزويني، عبد العادل الأعرجي، مهند الطبقجلي، حسين حمود شهيب، سمير جاسم حمود ...

وبالفعل كان الاتصال مع المحامي عبد الخالق العكام الذي كان يُمارس المحاماة منذُ الستينيات، شرح له بعض الاستنتاجات والحلول الذي يجب عليه أن يسلكها في تلك الحوادث وأعطاه اسم أحد أصدقائه من المحامين في مصر وهو المحامي أحمد نبيل الهلالي

رجع إلى نادية ليستوضح منها مجدداً عن تفاصيلِ الحادث وبالدقةِ حتى يستطيع التفكير ووضع الحل المناسب لإخراجها من هذه الورطة، طلب

منها أن تكون صادقة معه، كررت له ماحدث وإنها وجدت الصورة مهشمه ورؤوف مقتول على كرسيه، رفعت صورة ولدها، قبْلَتها، تركتها في مكانها وهربت، هل لاحظتي شيء آخر مُهشم يدل على حدوث معركة بين طرفين؟ فأخبرته بأن كل شيء كان في مكانه ماعدا الصورة، وبينت له بأنها شاهدت الخادم أبو الهول يدخل مسرعاً وعينيه تتجادحان غضباً، وقالت:عندما شاهدت أبو الهول الذي أكرهه أشد الكُرّه وهو يقتحم الدار لإشتراكه مع رؤوف في كل جرائمه وهو يدخل إلى الدار لكني لم أعرف قصته مع رؤوف، انتظرت حتى يخرج ومن ثم أدخل متخفية وبعد خمسة دقائق خرج أبو الهول مرعوباً خائفاً، نظرت يميناً ويساراً فلم أشاهد أي شخص في الطريق، دخلت مُسرعة، شاهدت البواب ملقياً على الأرض فاقداً وعيه، دخلت إلى الدار وفي غرفة مكتبه وجدت صورة طفلي مكسورة على الأرض...

طلب من نادية أن تنتظر في شقته حتى يستطيع الوصول إلى المحامي أحمد نبيل الهلالي الذي أوصى به صديقه المحامي العراقي (عبد الخالق العكام)، بالطريقِ تَذكر بأنه لايملك أجرة المحامي في حالة الاتفاق معه على الأجور، تَلَمسَ القلادة الذهبية التي وضعتها أمه في رقبته لتحمية مِن كل سوء، تذكرها وهي تبكي عندما شاهدته يحمل حقيبة السفر وطلبت منه أن يضع القِلادة المنقوش عليها آية الكُرسي لتحمية من الشر، فرّت دمعة على خدِه كان وجهها الملكوتي لا يفارق خياله وصوتها لايزال عالقاً في ذهنة وتلك

الدعوات التي كانت تُرددها قد حفظها، قرر أن يبيعها، مرَّ إلى أحد محلات الذهب وبالفعل قام ببيعها، توجه إلى مكتب المحامي المصري الذي استدل عليه عن طريق القطعة المعلقة فوق المكتب، نَدمَ كونه لم يعمل محامي ويكون له مَكتب كبير يحمل اسمه في شوارع المدينة، عند وصله رحَب به المحامي واستقبله أفضل الاستقبال وبعد أن ارتشف كوب القهوة بينَ علي تفاصيل الحادث التي سمعها من نادية وإن المحامي يسمع بهدوء وينظر إليه كالنسر الذي يُريد الانقضاض على فريسته وهو طائر في السماء ويدون بعض الملاحظات في أوراق يضعها أمامه وعندما انتهى علي بدأ يُعلق على كل نقطة ذكرها حيث أنه كان قد سمع عن الحادث وعرف بوجود أربع أشخاص تدور حولهم التهمة ومن ضمنهم المتهمة نادية التي كانت حاضرة مسرح الجريمة وإن الحادث كان غامض لوجود أربع أشخاص قد حضروا إلى مكان الحادث في وقت متقارب وجميعهم قد شاهدهم البواب أي إن أصابع الإتهام تدور حول الأربعة سأل المحامي عن الوضعية التي كان عليها المجني عليه في الغرفة بعد القتل وهل كان ساقطاً على الأرض؟ بيّن علي له بأن المجني عليه كان على كرسي المكتب والدماء تسيل من رقبته حسب ما ذكرته له نادية، طلب المحامي من علي العراقي إمهاله حتى يعرف تفاصيل الحادث أكثر عن طريق علاقاته الخاصة وبعد ذلك يتصل به لغرض تسليم نادية وأثناء جلوسه في مكتب المحامي اتصل بصديقه المحامي الحِلّي(العكام) لغرض التحدث مع المحامي المصري لبيان التفاصيل والسبل

الواجب اتباعها لغرض مساعدة المتهمه البريئة، وبعد حديث بين الطرفين وانتهاء المكالمة، طلب المحامي المصري من علي إمهاله لغرض معرفة تفاصيل الحادث والاطلاع على الأوراق التحقيقية للخروج بالطريقة الصحيحة والناجحة لتسليم المتهمه ومن ثمة الدفاع عنها بعد استلامه مقدم أتعاب المحاماة، خرج علي في شوارع مصر وهو يحدث نفسه ...آه لوكنت محامياً لَمَا شغلت نفسي بالاتصال بأصدقائي في العراق لغرض الحصول على معلومات لايعرفها إلا من عمل محامياً حتى لو كان حاصلاً على شهادة الماجستير أو الدكتورا بالقانون، حيث أنه أصر على إكمال دراسته رغم نصح أصدقائه له بالعمل في مهنة المحاماة ومن ثمَ الدراسة حتى يكون له الإلمام بكل الجوانب حيث إن الكتب الدراسية المنهجية لا ترتقي إلى أية عَتَبه وبعيدة عن التطبيق العملي المهني، تذكر أيام التطبيق مع زملائه وزميلاته في المحكمة وهم ينصتون إلى لائحة الدفاع الذي كان المحامي يتلوها وهم لايعرفون عنها أي شيء سوى تبادل الابتسامات بينهم وهَزّ الرؤوس عند الكلام دون أي فهم لما يجري مهنياً.

رجع إلى شقتِه مشغول البال يفكر كيف له مساعدة بريئة في محنتها، كانت نادية تنتظره بقلق وحيرة، بين لها ما سمعه من المحامي والمهلة التي طلبها لغرض معرفة تفاصيل الحادث.

في الصباح تحت زحمة الشوارع المكتظة بالسيارات والباعة المتجولين كل ذلك أثار في نفس المحامي المصري نوع من الاستياء والتذمر حتى وصل إلى المحكمة بشق الأنفس، وبالحديث مع محامي المتهمين الآخرين الذين تم القبض على اثنين منهما استطاع أن يكوّن فكرة عن موضوع الحادث بالإضافة على اطلاعه على الأوراق التحقيقة وأقوال المخبر البواب الذي تم إطلاق سراحه وتدوين أقواله بصفة مخبر، تولدت لديه فكرة عن الموضوع وبتفكير ذكي اطلع على التقرير الطبي للمجنى عليه ونوع الإصابة ومكانها وتفاصيل عن النتائج والتوصيات الطبية كانت الضربة من أعلى الرقبة من جهة اليمين بعمق كبير وينتهي الجرح بعمق بسيط حتى يكاد ينتهي في نهاية الجرح، دَوّنَ كافة التفاصيل، وعرف بأن المتهمين الآخرين قد أنكرا التهمة إلا المتهم ابن المُربية الصعيدي بقي هارباً رغم صدور أمر القبض بحقه وأصبح موقف نادية صعب حيث أن المتهم الخادم بين بأن المجنى عليه رؤوف قد أمرهما بالاعتداء جنسياً عليها وأخذ طفلها وهذه كلها دوافع للقتل، وبين بأنه عند وصوله إلى مكتب المجني عليه وجده مقتولاً على كرسيه وشاهد صورة نادر ابن نادية مُهشمة على الأرض ونفى علاقته بالحادث، أما المتهم الآخر السجين الهارب قد بين بأنه وجده مقتولاً وذكر لو وجده لقتله خنقاً، كل هذه الاعترافات قد حيّرت المحامي وعندما رجع إلى مكتبه بدأ يضع النقاط على الحروف وكيف يصنع الدليل لصالح موكلته نادية، إلا أن كل الأدلة هي ضد موكلته وصعوبة إخراجها من هذه التهمة،

اتصل بالعراقي علي وطلب منه الحضور إلى مكتبه للتباحث عن القضية وفق المستجدات والاعترافات والأقوال التي دوّنها عنده وبالفعل وصل العراقي للمكتب وعرف كافة التفاصيل وموقف نادية الصعب والتريث في تسليمها إلى النيابة حتى العثور على دليل يمكن الإستفادة منه، في تلك الأثناء اتصل علي بالمحامي الحِلّي ليشرح له تفاصيل الحادث، والذي طلب التحدث مع المصري وبدوره أرشده أن يتعرف على السيرة الشخصية للمجنى عليه لعله يسترشد إلى نقطة أو شيء يفيده في التحقيق،
بعد تحري دقيق في أوراق الدعوى والحصول على كافة تفاصيل وسيرة المجنى عليه وهي: كان يحتسي الخمر مُدخن سجائر يرتاد لعب القمار والحانات وله أعداء كثيرين وهو أيسر، وقف المحامي حول كل نقطة ولكن أراد أن يربط بين كل ما عرفه وبين تقرير الطبيب التشريحي للجثة، دَوّن ذلك في أوراقه ليتأمل الخروج بشيء يخدم موكلته.

سار علي العراقي وسط هالة من الأضواء وهو ينظر إلى القطع المُعلقة لمحامين وأطباء تذكر أيام تخرجه من كلية القانون وحصوله على هوية نقابة المحامين في العراق إلا أنه تردد في العمل في سلك المحاماة لكثرة خجله حيث أن صديقه المحامي الحِلّي ذكر له بأن المحامي لابد أن يكون شجاعاً لا يخشى أحد في الحق وطليق اللسان يعرف كيف يتصرف بكل لباقة إلا

إنه كان لا يستطيع مواكبة العمل فيها، ندمَ كثيراً لأنه كان في حال لايُحسد عليه ولابد أن يكون مُلماً وبين له كل ما قيل عن المحامي من قبل مفكرين أجانب وعرب فذكْره بقول المفكر الفرنسي فولتير عن المحاماة: كنت أتمنى أن أكون محامياً لأن المحاماة أجمل مهنة في العالم فالمحامي يلجأ إليه الأغنياء والفقراء على حد سواء ومن عملائه الأمراء والعظماء ...) وعن لويس الرابع عشر قال: لو لم أكن ملكاً لفرنسا لوددت أن أكون محامياً. وعن المستشار عبد العزيز فهمي رئيس محكمة النقض المصرية عند أفتتاح أولى جلساتها عام **1931** (إذا وازنت بين عمل القاضي وعمل المحامي .. لوجدت أن عمل المحامي أدق وأخطر.. لان مهمة القاضي هي الوزن والترجيح .. أما مهمة المحامي فهي الخلق والإبداع والتكوين.
وقد بين له كل متاعب العمل في مهنة المحاماة وصعوبة التعامل مع الموكلين.

على أثر التحقيق في قضية مقتل المجنى عليه رؤوف حضر شهود كانوا من ضمن الساكنين بالدور المجاورة لدار المجنى عليه رؤوف إلى المحكمة للإدلاء بشهاداتِهم حيث بينوا بأن شخص يرتدي ملابس الصعيد وهو بالقرب من دار المجني عليه ساعة الحادث وهم يستطيعون تشخيصه في حالة مشاهدته كان يحمل بيده شيء يخفيه بواسطة كيس أسود وكان يلتفت

يميناً ويساراً حتى تسلق من البوابة الخلفية للدار وغاب عن نظرهم وظنوا بأن رؤوف على علم بذلك ولم يبق إلا دقائق وخرج مهرولاً يبتلع الخطوط المرورية في الشارع الفرعي للدار، أكدت المحكمة على أمر القبض على الصعيدي لتوفر كل الأدلة ضده، وعند مراجعة المحامي الهلالي إلى المحكمة لمعرفة مستجدات الحادث، اطلع على أقوال الشهود ضد المتهم الصعيدي، تنفس الصعداء حتى دونها في أوراقه، اتصل على علي العراقي ليخبره بالأخبار التي يعتبرها مفيدة ومُفرحة لموكلته وتساعدها في البراءة، حال سماع الخبر أفهمَ نادية بآخر التفاصيل، استمهلها للخروج إلى مكتب المحامي، وفي نفس اليوم تم القبض على الصعيدي وبقي على ذمة التحقيق، أصاب المحامي أحمد الهلالي القلق إزاء ذلك والذي تحول إلى علي العراقي الذي شعر بتوتر... حتى قال في نفسه: أخشى أن يعترف على نادية ويقول هي شريكتي في الجريمة! أو يذكرها في أقواله! أو يكون قد شاهدها فعلاً وهي تقوم بقتل المجني عليه.. بدأ يعصر رأسه براحة يديه! يا إلهي من القاتل الفعلي إذاً؟

خرج عبدالله مع صديقه أبو جابر من مقهى أبو سراج لأخذ جولة قصيرة في مدينة الحِلّة مروراً بشارع المكتبات واقتنائهم بعض الكتب من مكتبة الفرات التي كانت من أقدم المكاتب في مدينة الحِلّة لصاحبها مهدي عباس السعيد، واطلاعهم على الكتب في مكتبة العصرية لصاحبها فارس صاحب

حسين السباك الذي ورثها من والده، حتى انتهيا إلى مكتبة الدار الوطنية وبعد اطلاعهم على الصحف المحلية توجها إلى الأزقة الضيقة حيث البيوت التراثية الحِلّية التي تمتاز بشناشيلها الرائعة من الخشب وشبابيكها الخشبية المزخرفة التي تعرف بالأرسي والتي تفتح وتغلق إلى الأعلى والأسفل وتتخلل الأرسي الأبجورات وهي شبابيك صغيرة شبيهة بالأبواب تغطيها مقاطع من الخشب المائل المشبّك لدخول الهواء وحجب الضوء وإن لهذه البيوت جمالية تظهر في الزخرفة بأشكالها المختلفة نباتية وهندسية فهي تضفي الجو العاطفي نتيجة لتسرب أشعة الشمس من خلال الزجاج الملون حيث ذكر له أبو جابر بأن أشهر البنائين الحِلّيين في هذه الصنعة هم حسين فنفخ، علي بكه، عباس شدهة، هاشم مطر أبو حبال، محمد عاشور، أحمد حنفوش، والحاج كيفي، وعباس القيسي وغيرهم الذي لا أتذكر أسماءهم، ياصديقي إن الحِلّة تضفي عليها الطبيعة الأثرية والتراثية لقربها من مدينة بابل الأثرية بمسافة سبعة كيلو متر تقريبا وفيها مسجد مشهد الشمس وبرس ومقام النبي إبراهيم وبرج النمرود ومقام النبي أيوب ومزارات للسيد ابن طاووس و ابن ادريس الحلي والمحقق الحلي وابن النمة وغيرهم وإذا سرت في أزقة الحِلّة بين الطاق وجبران تجد فيها العديد من مراقد العُلماء وكذلك تمتاز بالإلفة والتعايش السلمي بين الطوائف والمِلّل المختلفة فتجد مَحلة الأكراد[13] التي كانت يسكنها الكثير من الكُرد وكان للأدب فيها

[13] الأكراد: محلة في مدينة الحِلّة في محافظة بابل: سميت بهذا الإسم نسبة الى قبيلة (جاوان)

مكانة متميزة فهناك مجالس أدبية فيها مثل مجلس عبد السلام حافظ ومجلس آل مهاوش وبجانبها محلة الهيتاويين[14] التي ولد فيها الفنان سليم البصري في عام **1926** صاحب تمثيلية (تحت موسى الحلاق) بدور حجي راضي، والتي يسكنها أبناء أهل السُنة والجباويين وكذلك عكد اليهود أو بوابة اليهود حيث يهود الحِلّة متجانسين ومتكافلين مع الحِلّيين في كل الميادين حتى كانوا يقيمون الصلاة في دور العبادة الواقعة في محلة الجباويين وأخرى في محلة التعيس أمثال صلاة الغفران وصلاة القمر والزيارة الموحدة مع المسلمين إلى نبي الله ذو الكفل (حزقيال) وكانت العلاقات الإجتماعية طيبة مع الحِلّيين حتى نُقل عن الأديب والمحامي أنور شاؤول نتيجة التسامح الديني هو قيام الحاجة (وضحه أم الهادي) وهي من النّساء الحِلّيات بإرضاع أحد أبناء الطائفة اليهودية المدعو (أنور شاؤول)[15] بسبب وفاة والدته وهو ابن السبعة أشهر والذي أصبح شاعراً وأديباً حِلّياً حتى صدور أمر بإلقاء القبض عليه من قبل نائب رئيس الجمهورية صدام حسين ومدير الأمن العامة ناظم كزار وكان من المتوقع اعدامه إلا إنه

الكردية سكنوا الحلة ومنهم الفقيه محمد علي الجاواني وقد استعان بهم الأمير صدقة بن مزيد في محاربة أعدائه وكانت مقرا للجند الكرد .

[14] الهيتاويين: محلة في مدينة الحِلة في مركز محافظة بابل وسميت بهذا الإسم نسبة الى قرية هيت وأقيم فيها جامع الهيتاويين .

[15] أنور شاؤول: هو أنور بن شاؤول ساسون شاعر وأديب عراقي ولد لعائلة يهودية في مدينة الحلة عام 1904م وقد ألقي القبض عليه بأمر من نائب رئيس الجمهورية صدام حسين وناظم كزار مدير الامن العامة وكان المتوقع اعدامه لكنه أرسل قصيدة الى الوزير مما سمح له بمغادرة العراق خلال السبعينيات.

أرسل قصيدة إلى وزير الداخلية صالح مهدي عماش الذي كان محباً للشعر عندما قرأ القصيدة صالح اهتز لكلماتها:إن كنتُ من موسى قبسْت عقيدتي
فأنا المقيم بظل دين محمد
وسماحة الإسلام كانت موئلي
وبلاغة القرآن كانت موردي
ما نال من حبي لأمة أحمد
كوني على دين الكليم تعبدي
سأظل ذيّاك السموأل في الوفا
أسَعِدت في بغداد أم لم أسْعِدِ
فبدوره قام صالح بإرسالها إلى رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر فأمر بإطلاق سراحه والسماح له بالسفر خارج العراق.

بدأ المحقق يضرب أخماساً في أسداس ويضع النقاط على الحروف ويعيد ما سمعه من البواب واعترافات المتهمين بالدخول إلى مكتب المجني عليه ولكنهم أنكروا القتل والشهود ووقائع القضية وظروفها...
إن حادثة القتل حسب أقول البواب بدأت في الساعة السادسة عصراً كان ذلك عندما قام الخادم أبو الهول بضربه وقد فقد الوعي خمس عشرة دقيقة وبعدها ذهب مُسرعاً إلى داخل الدار ومن ثم التوجه إلى غرفة مكتب

المجنى عليه رؤوف ووجده مقتولاً، بدأ المحقق يتتبع الأحداث حسب أقوال المتهمين الموقوفين وشهادات الشهود، بأن الخادم قد يكون أول من دخل إلى مكتب المجنى عليه بعد ضرب البواب مباشرةً وهذا واضح من أقوال البواب واعتراف الخادم بأنه قام بضرب البواب والدخول إلى مكتب رؤوف، فكر المحقق: إن أقوال الخادم أبو الهول غير صحيحة لأنه كان أول من دخل إلى مسرح الجريمة وقد قام بقتل رؤوف وهرب، يا إلهي لكن الخادم ذكر بأنه وجده مقتول على الكرسي وبعد خمسة دقائق خرج مباشرةً .. لكن البواب قال بأني شاهدت المتهمة نادية قبل مجيء الخادم قد تكون هي من قتلت رؤوف والدوافع للقتل موجودة بدليل إن بصماتها موجوده على صورة طفلها المهشمة على الأرض.. لكن البواب قال منعتها من الدخول حتى جاء الخادم وقام بضربي .. يا ترى قد يكون السجين الهارب رأفت من دخل أولاً عند تسلق الجدار وإن البواب أكد بأنه شاهد شخصاً يتلصص خلف الجدار وقد تعرف عليه أثناء التحقيق بأنه المتهم رأفت وكان البواب أول شخص شاهده، قد يكون هو الذي قتل رؤوف وهرب من نفس الجهة التي دخل منها وقبل مجيء الخادم ونادية ولاسيما بأن السجين الهارب رأفت اعترف بأنه تسلق الجدار في الساعة السادسة مساءً لكنه وجد المجني عليه رؤوف مقتولاً على الكرسي وهذا يدل على أنه أول من حضر مسرح الجريمة، وعند التحقيق مع الصعيدي اعترف بأنه تسلق الجدار ودخل إلى الدار بالساعة السادسة وعشر دقائق ولكنه لم يقم بقتل رؤوف

ووجد صورة مهشمة على الأرض والمجني عليه مذبوحاً على الكرسي.. شك المحقق بأقواله خاصة عندما ذكر بأنه شاهده مذبوحاً.. كيف عرفته مذبوحاً؟ أنت من قمت بذبحه بين لنا تفاصيل الحادث وبأي آلة قتلته! وكيف خططت للجريمة؟

نكر الصعيدي التهمة رغم الضغط عليه والضرب والتعذيب إلا أنه نكر قيامه بقتل رؤوف.

المحقق الذي قضى سنين طويلة في مجال التحقيق وقد كشف المئات من الجرائم، أصبح عاجزاً أمام هذه الحادثة، لكن بقيت متهمة هاربة ربما قد تكون هي من قتلت رؤوف ولاسيما بأن البواب قد رآها أولاً تَهمّ بالدخول وربما قد تكون دخلت دون أن يراها البواب، واعتبر إطلاق سراح البواب والإفراج عنه إجراء غير صحيح لأنه أول من أخبر عن الجريمة ولا ينفي المحقق اشتراكه أو تفرده بالقتل لأطماع مادية، لكن الذي حَيّر المحقق بأنه لم يُسرق أي شيء من دار المجني عليه وهذا يدل بأن الدوافع لم تكن مادية وإنما الانتقام يا ترى من القاتل الحقيقي! أو من هُّم القاتلون...! وهل اشترك عدة أشخاص في قتله؟ وهل إن البواب لم تكن أقواله صحيحة؟ وربما البواب قد سهل الأمر للقاتل في الدخول وتنفيذ جريمته!.

وإن من شأن تلك الجريمة البشعة التي قتل فيها المجني عليه أن تكون تصرفاً تمَّ التخطيط له مسبقاً أني أعتقد أن المجرم على قدر عالٍ من الذكاء بحيث نفذ الجريمة بطريقة لابد لي أن أعرفها...

أصبحت المتهمة نادية الهاربة محل تفكير المحقق لكي تكتمل له كل أطراف الجريمة أو على أقل تقدير كل الأشخاص الذين ذكرهم البواب ساعة الحادث، بدأ البحث عنها بعد إصدار أمر القبض وقد عرف المحامي أحمد الهلالي بالخبر، اتصل مباشرة على علي العراقي يطلب منه إحضار نادية لغرض تسليمها لإثبات حسن النية بدلاً من القاء القبض عليها وهو يتكفل بالدفاع عنها حسب مهارته وخبرته، كانت نادية بالقرب من العراقي وسمعت كل شيء ووعدها بأنه سوف يتابع القضية مع المحامي المصري ويزورها إلى الموقف حتى إثبات برائتها، رزَمت ملابسها وخرجت مع العراقي إلى مكان متفق عليه حتى يتولى المحامي المصري بتسليمها إلى مكتب الإجرام ويحضر إجراءات تدوين أقواله، وبالفعل تم تسليمها وإيداعها في موقف النّساء.

أيام الربيع الزاهي بشمسه المعتدلة، تتفتح الأزهار وتفوح منها العطور وتغرد العصافير مبتهجة وسط أغصان الأشجار في دار عبد الله في الحِلّة حيث يعتبر تجمع العصافير بأصواتها نذير خير عندهم من ضمن التقاليد والأعراف، فقد تقدم لخطبة ابنته نرجس شاب يعمل موظف في أحد مؤسسات الدولة ولكنه من غير عشيرة، كانت موافقة النّساء قد سبقت

قدوم الرجال التي طالما تحصل في المجتمع العراقي في التأكد من أخلاق الخاطب وسمعته ودينه وبعد حصول الموافقة وصل الخبر الى أولاد عَمها الذين تشظت من جبينهم النزعة العشائرية القَبَليّة لغرض منع الزواج بأية وسيلة كانت حتى أن اضطرهم الحال بالسلاح والقتل في حالة مخالفة والدها تقاليد العشيرة وهذا ما يسمى(النهوة) وهي عرف عشائري قديم جداً يقضي بمنع الفتاة من الزواج برجل غريب عن العشيرة ويُمَكّن هذا العرف ابن العم والعم من النهي على الفتاة بغية تزويجها بأحد أقاربها حصراً ويمنعها من الزواج من خارج العشيرة، حاول عبد الله الوقوف بوجه شقيقه وأولاده حيث أنه لايؤمن ما تتبناه العشيرة من أعراف يعتقد هو ويجزم بعدم صحتها ومخالفتها للدين والقيّم الإنسانية، وهي كبح لحرية المرأة التي كرمها الله سبحانه وتعالى فهي الأم والأخت والبنت والحبيبة والزوجة، أنجبت الأنبياء والصديقين والعلماء، جمع عبد الله عُقلاء أقاربه لغرض إنهاء تلك الفتنة التي قد تؤدي إلى القتل وما تخلفة من آثار سلبية تلحق الطرفين عند الزواج الذي ينبني على الإكراه والقوة وخلق عائلة مفككة تؤثر سلباً على أولادهم في المستقبل، فبدأ أبو أحمد الذي يُلقبه أبناء القرية بالحكيم بالسرد الطويل لمخالفة زواج النهوة لأحكام الشرع الذي أعطى الزوجة حق اختيار الكفؤ لها لحياة كريمة وهي أبسط حقوقها المشروعة ومخالفتها للقانون وفرض العقوبة فيها وأشار إلى بعض الظواهر الاجتماعية السلبية المشابهة لها والتي من شأنها سلب حرية المرأة مثل

زواج (الكصة بالكصة) أو الزواج المتبادل أي امرأة مقابل امرأة كأن يعطي شخص أخته لشخص آخر كزوجة مقابل أن يحصل الأخ على زوجة له بغض النظر عما إذا كانت موافقة على الزواج من عدمه ولأن هذا الزواج حاله حال زواج النهوة من حيث الآثار الاجتماعية السلبية التي تفتك بالأسرة وتحول المرأة إلى سلعة في سوق النخاسين وأن طلاق إحداهما يؤدي حتماً إلى طلاق الأخرى، قاطعه أحد الجالسين من أولاد عم عبد الله قائلاً: زواج الكصة بالكصة الحل الأمثل للزواج بغية التقليل من مصاريف الزواج وزيادة المهور المبالغ بها، قفزت نظرة استياء إلى عينيّ أبو أحمد الحكيم ثم قال: لا يا رجل هذا الزواج ظاهرة اجتماعية سيئة جداً، وهي بركان قد ينفجر في أي لحظة ويدمر كلا العائلتين واستدرك أبو أحمد الحكيم القول: والأدهى والأسوأ من ذلك زواج (الفصلية) أو مايسمى زواج الدية والمرأة تكون ضحية زواج الدم الذي ينص على تزويج إحدى بنات العشيرة المعتدية إلى الشخص المعتدى عليه أو أحد أقاربه بعنوان (الثأر) وتكون المرأة بين المطرقة والسندان وتحت تأثير وضغط نفسي صعب جداً فكيف لها أن تعيش في وسط عائلة يكون شقيقها أو أحد أقاربها قد قتل شخص منهم ولا زال دمه عالقاً على ألسنة الرجال ...

هَزَّ عبد الله رأسه أسفاً وممتعضاً من تلك الظواهر السلبية التي هي موجودة عند أُناس تَدّعي الإسلام، أسند الحكيم القروي ظهره إلى الوسادة وأغمض عينيه لحظات وقال: ألا تعرفون أن هذا الزواج هو محرّمٌ شرعاً وقانوناً لأنه

يفتقر إلى أهم ركن في الزواج وهو رضا الطرفين وبعيداً عن الإكراه والغصب ...

بعد حديث طويل ومناقشات عقيمة استطاع الحكيم القرويّ إقناعهم بوجهة نظره السليمة والتي تتناسب مع العقل الراجح حتى طلب منهم التصافح ومعانقة بعضهم البعض وتمت الموافقة على زواج الموظف الذي تقدم للخطبة من عشيرةٍ أخرى وكانت تلك المبادرة نذير خير للزيجات التي قد تحدث لاحقاً في نفس العشيرة التي تَقبلت تلك الحلول، أبلغ عبد الله عائلة الخاطب بالموافقة على الزواج وتسوية الأمور مع أبناء عمها، والذي أرسل أمه وشقيقاته لغرض تجهيز المخطوبة بكل مايلزم للزواج من ذهب وملابس وأفرشة وأثاث وهو عبارة عن غرفة نوم كاملة يتحمل مصاريفها الخاطب ومن ثم تحديد موعد الحِناء والزواج ...

كان الجو مشحوناً بأنفاس ناديه ودموعها وصدى صوتها يرّن في أُذنيه بدأ يتذكر علي العراقي ويعيد قصتها في مخيلته ولم يتصور سابقاً بشاعة أصحاب النفوذ والمال، رمى جسده على السرير الذي كانت تنام عليه فلا يزال عطرها بوسادته، تخيّل جريمة القتل وأطراف الحادث ومن قام بقتل رؤوف ومصير نادية البريئة وابنها الصغير أين هو الآن أكيد أن رؤوف له

أعداء كُثر وربما قتله أحدهم! لم يستطع النوم إلا في ساعة متأخرة، في الصباح استيقظ من نومه تعباً وأكمل فطوره، اتصل بالمحامي المصري ليطمئن على نادية، أخبره بأنه سوف يحضر معها في التحقيق ومن ثم يخبره بكافة التفاصيل، توجه إلى الجامعة يحمل حقيبته الصغيرة لحضور المحاضرة مع أصدقائه، كان شارد الذهن يفكر بنادية ..

بعد إيداع نادية في سجن النّساء وقضائها ليلة قاسية وصعبة بين البكاء والنحيب حتى جلست بقربِها امرأة كبيرة سجينه يوحي عليها بأنها المُسيطرة على النزيلات تستفسر منها عن سبب دخولها للسجن، بعد أن أوضحت لها التهمة الموجهه إليها عن قتل رؤوف شقيق زوجها، طبطبت على كتفها قائلة: يا بنتي الله كريم سوف يظهر الحق ويُفرج عنك، أما أنا فمحكوم عليَّ بالسجن المؤبد وسوف أقضي باقي حياتي في السجن بعيدة عن أولادي وبناتي، حَدقت نادية بوجه السجينة الكبيرة وقالت: ماذا تقولين سجن مؤبد... الله يكون بعونك ، ماذا فعلتِ؟

سكتت قليلاً بألمٍ قابع في عينيها وقالت: قتلت زوجي الزاني لعنه الله أشد قتلة، وضعت نادية يديها على وجهها وصرخت: يا ستار! أكملت السجينة حديثها: مَسكته أكثر من مرةٍ وهو مع جارتي الأرملة وحذرته ولكن في تلك الليلة المشؤومة عندما بحثت عنه وجدته مع ابنة الأرملة في الحمام

وهما في وضعية مُريبة ومن غير ملابس، تفصد الدم في وجهي حتى أصبحت كالثور الهائج وقمت بذبحه بالسكين وطردت البنت إلى أهلها، وسلمت نفسي إلى الشرطة... بكت بحرقة وصرخت: هو المجرم! زوجي زاني ومع ذلك حكموا عليَّ بالسجن المؤبد... القضاء غير عادل... فرت الدموع من عينيها وكأن حادث القتل حصل تواً، مسكتها نادية وأخذتها بالأحضان قائلة لها: لابد أن تتغير الظروف ويُعفى عنك بعفو عام ... ، نكست نادية رأسها وتمتمت قائلة: الله كريم وبحق القديسة مريم العذراء، وصلت صلاة المسيح المعهودة، بكت السجينة ووضعت رأسها على كتف نادية حتى خلدت إلى النوم وهي تَدْعي باسم السيد المسيح.

في ذلك المساء المُشمس طلبت أم جرجيس العراقية زوجة عبد المعطي المصري من زوجها الخروج مع أولادها لرغبتهم في زيارة إلى كنيسة مريم العذراء في بغداد، عند وصولهم طلبت أم جرجيس من مسؤول الكنيسة وهورجل وقور كبير السِن أن يوضح لزوجها المصري كل ما يتعلق بالطائفة، تبسم حتى بانت أسنانه البيضاء كالثلج المرصوص وقال : يا بني الله يبارك في زواجكما ببركة السيد المسيح ومريم العذراء... يا بني إن بغداد تضم العشرات من الكنائس المسيحية وهي موجودة منذ إنشائها في العصر

العباسي بل يُرجع بعض المؤرخين تواجدها إلى ما قبل إنشاء مدينة بغداد على يد الخليفة أبو جعفر المنصور حيث بينوا بوجود أديرة مسيحية في أطراف موقع بغداد الحالي وأن المسيحين يتألفون من عدة طوائف غالبيتهم من الكاثوليك والأرثوذكسية وبروتستانتي، علقت أم أحمد على الحديث قائلة إني سمعت عن دير الثعالب لكن أهلي كانوا يتحدثون عن زيارته، هَزَّ رأسه: نعم هذا الدير ببغداد بالجانب الغربي منها بالموضع المعروف بباب الحديد وأهل بغداد يقصدونه ويتنزهون فيه وله عيد لا يتخلف فيه أحد من النصارى والمسلمين، وباب حديد أعمر موضع وأنزهه لما فيه من البساتين والشجر والنخل والرياحين، وقال عنه الياقوت أنه دير مشهور بينه وبين بغداد ميلان أو أقل في كورة نهر عيسى على طريق صرصر رأيته أنا وبالقرب منه قرية تسمى الحارثية، وقد ذكر هذا في حوادث سنة **683** السنة التي زادت مياه دجلة زيادة عظيمة وغرقت في الجانب الغربي من بغداد عدة نواح ووصل إلى قباب دير الثعالب، لم يسمع أبو عبد المعطي عن هذه الدير وقال: ولكن هل إن كنيسة مريم العذراء هي أقدم كنيسة في بغداد، أطرق رأسه إلى الأرض ثم رفعه وقال: يعتقد بأنها أقدم كنيسة بنيت في بغداد إذ شيدت عام **1640** م من قبل الأرمن على قطعة الأرض الممنوحة لهم من قبل السلطان العثماني مراد الرابع وهذا هو موقعها الحالي في ساحة الميدان قبالة شارع الرشيد، وإذا تُريد يا بني أحضر في وقت آخر

وسوف أتحدث لك كثيراً عن أحوال المسيحين، نظر عبد المعطي إلى جداران الكنيسة كان أولاد أم جرجيس قد أنهوا جولتهم .

إلا أن تلك الليلة قد أقلقت مضجع المحقق الذي قضى وقته يبحث وكانت عينيه مسمَّرتين على الورق يُثبت مُلخص عن أقوال الشهود وكل كلمة ذكرها المتهمين ومدى صحتها، كان لابد له أن يسيء الظن بكل شيء حتى تستوضح له الأمور وهذا ما كان جُلَّ عَمله حيث أنه كان بارعاً نبهاً ذكياً لا تعرض عليه قضية إلا اكتشف الجُناة فيها لكنه كان ينتظر نتيجة تقرير الطبي التشريحي للجثة وتحديد عائدية الدم العالق على السَكينة التي ارتكبت فيها الجريمة، إن تلك النتائج يمكن من خلالها التوصل إلى معرفة القاتل من بين الأشخاص الأربعة الموقوفين على ذمة التحقيق ولاسيما أكتملت كل الأطراف الذين تم الاعتراف عليهم ودَوّن من ضمن المسودات أن يطلب من قاضي التحقيق إصدار أمر قبض مجدداً على البواب لاحتمال اشتراكه بالحادث...

في الصباح وصل المحقق باكراً إلى مكتبه استعداداً لتحضير أوراق القضية المكلف بها حتى يستطيع أخذ أقوال المتهمة نادية وفق الأدلة المتوفرة وأقوال البواب وأقوال الشهود، كتب مطالعة إلى القاضي يطلب فيها إصدار أمر القبض بحق البواب وإحضاره لغرض مواجهته مع المتهمة في حال إنكارها

الجريمة وبعد ساعة تم إحضار المتهمة إلى مكتب المحقق لم يكن التحقيق بتلك الشفافية كما تبينه الأفلام والمسلسلات العربية وما تحث عليه حقوق الإنسان بالتعامل مع الموقوف بكل احترام من حضور محامي دفاع عن المتهم في دور التحقيق رغم إن ذلك قد نص عليه القانون، طلب منها أن تسرد له حادثة القتل قائلاً لها: كيف قتلتِه لا تنكري لأن السكينة عثرنا عليها في مكان الحادث مُلطخة بالدم. بكت بحرقةٍ وألم وصرخت قائلة: بريئة... بريئة والله، انتفض المحقق واقفاً وزمجر: أقول لك إن كافة الأدلة تثبت تورطكِ بالحادث... البواب شاهدكِ عندما حضرتي لغرض الدخول وكنتِ تحملين شيئاً في كيس، وكذلك البصمات التي تعود لكِ كانت على الصورة المهشمة على الأرض التي هي صورة طفلكِ، طَلبت حضور وكيلها المحامي المصري إلا أنه أخبرها بأن التحقيق سري ويمكن للمحامي أن يحضر معها في المحاكمة، صرخ بوجهها غاضباً: اعترفي وإلا ضربتك أو أتخذ وسائل لا ترضيكِ، ضمت وجهها بين يديها وسكتت ثم قالت: ما ذكره البواب صحيح لكن هل عرفت ما فعل بي المجني عليه... هَزَّ المحقق رأسه إشارة توحي بأنه عرف كل شيء عن موضوعها مع المجني عليه وما حَلَ بابنها، أومأ بيده حتى تكمل فقالت: عندما شاهدت رؤوف يدخل الدار حضرت لغرض الدخول لكن البواب منعني من الدخول وتواريت خلف الشجرة أنتظر الوقت المناسب للدخول حتى شاهدت الخادم أبو الهول وهو يضرب البواب على رأسه وهَمَّ بالدخول مُسرعاً وبعد خمسة دقائق تقريباً

خرج راكضاً مرعوباً خائفاً وبعد ذلك دخلت حتى وصلت إلى مكتبه فوجدته مقتولاً على الكرسي الذي يجلس عليه وشاهدت صورة طفلي مهشمة على الأرض فلمستها وقبْلتها وخرجت مرعوبة من منظر القتل البشع، وفي هذه الأثناء وصل المحامي المصري إلى باب غرفة المحقق وطلب الدخول للحضور مع موكلته إلا أنه تم منعه حتى ذكر بصيغة امتعاض قائلاً: سوف أطعن بالتحقيق إنه غير أصولي...

لم يكترث لقوله الشرطي الواقف عند الباب، أنهى المحقق تدوين الأقوال التي ذكرتها المتهمة نادية وإرسالها إلى القاضي ...

وصل المحامي المصري إلى المحكمة ممتعضاً من تصرف أفراد الشرطة ومنع المحقق له بالدخول مع موكلته أثناء تدوين أقوالها فانتظر لحظة أحضار موكلته المتهمة نادية لغرض عرضها على القاضي والذي بين له ما تعرض له من إقصاء وإبعاد وهذا مخالف للقانون بعد إن تم مناقشتها من قبل القاضي بحضور محامي الدفاع أمر بتوقيفها على ذمة التحقيق حتى ورود نتيجة التقرير الطبي العدلي وإكمال التحقيق، كان علي العراقي ينتظر المحامي عند باب المحكمة لمعرفة آخر التطورات في قضية نادية وآخر قرارات القاضي، وعندما خرج كان وجهه حزين وقد سبق العراقي بالحديث قائلاً: تم توقيفها على ذمة التحقيق وسوف أسرع في متابعة التقرير الطبي ونتيجة فحص الدم على السَكين لأنها قد تأتي بأدلة تُبرئ نادية، مَسك علي

من كتفه وقال: الله يبارك فيك كان موقفك مُشرف وهذا هو المعروف عن الغيرة والشهامة العراقية الأصيلة.

أما الرجل المعصوب العين مع زوجته قد باتا بين الخوف والقلق والرعب لمصيرهما الذي أصبح مُهدداً بمقتل رؤوف وزَج العديد من المتهمين بتهمة قتله، وماذا يفعلان بالطفل نادر الذي وضعه رؤوف أمانة عندهما والاعتناء به خلال فترة يخبرهما بها رؤوف، حيث سمعا بخبر مقتل رؤوف وتوقيف والدة الطفل بتهمة القتل، كان الرجل معصوب العين له ديون كبير بذمته لرؤوف ولا يستطيع تسديدها لذلك قَبَلَ بشرطِ رؤوف ببقاءِ الطفل عندهما إلى وقت هو يُحدده، بدأت زوجته تَلومه وتحثه على تسليم الطفل إلى مركز الشرطة إلا أنه امتنع خوفاً من اعتقاله بتهمة القتل أو بتهمة خطف الطفل، وطلب من زوجته التريث لحين إيجاد فرصة مناسبة لتسليم الطفل أو تركه بالقربِ من مركز الشرطة والهرب ولا سيما بأن الطفل لا يستطع أن يتعرف على دارهما، إلا أن البواب قد سمع يوماً رؤوف وهو يتحدث مع شخص لا يعرفه عن كيفية إخفاء الطفل بمكان آمن ولكنه لا يعرف تفاصيل أخرى، لذا قرر الرجل معصوب العين أن يذهب مع الطفل وهو متخفٍ بلفافٍ على وجهه ويتركه بالشارع وعلى مسافة من مركز الشرطة، وصلا إلى دُكان صغير يبعد ثلاثين متراً عن المركز وصاحب الدُكان

كان من رجال المباحث المنتشرين في كل مكان مع صانع له، حاول الرجل المعصوب العين أن يجد عذراً لترك الطفل أمام الدُكان ويهرب فقام بشراء علبة سكائر، انتبه له مرتبك وخائف وكأنه يخفي وراء لَفافه شيء، يلتفت يميناً ويساراً، تبعه ببطء حتى لا يلفت انتباهه، شاهده قد ترك الطفل الصغير يبكي بصمت وكأنه خائف مرعوب، هرب سيراً على الأقدام بخطى واسعة، ولكن رجل المباحث أخذ الطفل وأبقاه مع الصانع وتبع الشخص المعصوب العين بتأنٍ وهدوء حتى وصل الأخير إلى دار قديمة قابعة تحت الجسر وهو ينظر إلى الخلف بينما رجل المباحث اختبأ خلف الجدار، بعد دقائق وصل بالقربِ من شباك الدار يتنصت على الحديث الذي يجري بين الزوجين وهو يعاتب زوجته بقوله: ارتاحيتي الآن خَلصنا من الطفل وتركته عند الدُكان، فرت دمعه ساخنة على خد زوجته وقالت: تعودت عليه كان طفل هادئاً وجميلاً ما مصيره الآن، الله يلعن رؤوف ويحرقه في نار جهنم، انتبه رجل المباحث عندما ذُكر اسم المجني عليه رؤوف تلك الحادثة التي باتت مصدر تعب وإرهاق السلطة بالبحث عن القاتل وقد يكون الزوجان شريكان في القتل، رجع مُسرعاً إلى الدُكان واصطحب الطفل إلى مركز الشرطة وطلب مقابلة المحقق المسؤول عن التحقيق بجريمةِ قتل رؤوف، حتى أخبره بكل ما سمعه وعن الطفل الذي استطاع أن يتعرف عليه من خلال المبرز الجرمي فهي الصورة المهشمة تشبهه، وفوراً أخذ مفرزة من الشرطة برفقةِ رجل المباحث للوصول إلى تلك الدار

وبالفعل ألقوا القبض عليهما، صرخا: بريئين يا سيدي لم نفعل شيئاً، وضع الأغلال في معصميهما وقادهما إلى المركز للتحقيق معهما عن حادثة القتل وعن الطفل وخطفه...

وبينما يجري المحقق التحقيق مع المتهمين الجديدين ليصبح مجموع المتهمين بحادث القتل سبعة أشخاص من بينهم امرأتين، نادية وزوجة الرجل معصوب العين اللتين أنكرتا اشتراكهما بحادث القتل وأنهما سمعا ذلك من أفواه الناس وكانا وقت الحادث عند طبيب الأسنان ومثبت تاريخ المراجعة والساعة في سجلات الطبيب، أما بخصوص الطفل فإن رؤوف قد وضعه أمانة عندهما وقد بينا بأنهما حافظا عليه واعتنيا به طيلة تلك الفترة ولم يقصرا معه أبداً، وأثناء حديثهما بكت السيدة بشدة وقالت: أحبه مثل ابني ... صرخ بوجهها المحقق غاضباً: اسكتي يا مجرمة وإلا رفع يده إشارة للضرب، وفي تلك الأثناء تلقى المحقق نتيجة التقرير الطبي العدلي ونتيجة فحص الدم على السكين والبصمات، تَسمّرت عينية وصرخ يا إلهي ما هذا...

خرج علي العراقي وقام بشراء فطائر من الجبنة واللحم وتوجه بها إلى نادية وعند وصوله طلب من حارس الموقف أن يقوم بإيصال كيس الطعام لها وبعد إن قام بتفتيشه توجه به إلى الموقف، التفت يميناً ويساراً قال في

نفسه: الكثير من هُمّ في السجنِ مظلومين، توجه إلى الجامعة حيث كان صديقاه محمد السوداني وسعيد الأردني ينتظراه في النادي لتناول الإفطار معهما، تلقياه بالأحضان، كان الشاي سيد الطاولة والمُحبب لدى العراقيين والمصريين والسودانيين والأردنين على حد سواء مع قطع من الكيك بالقشطة، رغم ابتسامة محمد السوداني إلا أنه كان شاحب الوجه وكأن شيء في قلبه يحوم كسفينة غارقة في مياه مالحة، سأله علي العراقي عن حالة حزنه، رد عليه سعيد الأردني قائلاً: إن محمد السوداني دائماً حزين رغم لطافته وتحويله الحزن إلى مرحٍ، هَزّ محمد السوداني رأسه آسفاً فقال: إني تركت أهلي في ظل أوضاع اقتصادية سيئة جداً، واضطرابات سياسية، قاطعه علي العراقي قائلاً : إن حال السودان هو نسخة طبق الأصل لعديد من الحكومات العربية في ظل التفرقة والاستعمار في العراق والأردن أيضاً، رد محمد السوادني بحزن قائلاً: إن حال السودان هو الأسوء من كل الدول حيث مَر بتقلبات ونزاعات فبعد قيام الثورة المصرية **1952** قررت حكومة مصر حق تقرير المصير للسودان وشهد وضع أسس النظام السياسي الجديد حتى تألفت حكومة من عام **1956** وكان يرأسها إسماعيل الأزهري إلا أن هذا العهد لم يدُم حتى انتهى بانقلاب عسكري بقيادة الفريق إبراهيم عبود على السلطة في **17** نوفمبر الثاني عام **1958** م وتولى السلطة بالبلاد مجلس عسكري الذي كان أول ضربة لنظام التعددية الحزبية كما تبنت الحكومة

سياسة قطع الدعم الأجنبي عن المتمردين من خلال وقف أنشطة الإرساليات التبشيرية المسيحية التي تم اتهامها بتأجيج النزاع ولكن عام **1963** نشطت المعارضة الجنوبية في المنفى وبرز حزب سانو[16] وعندما لم يتم الإستجابة إلى مبادرة الاتحاد، اشتعلت نار الحرب الأهلية في الجنوب حتى ظهرت في سبتمبر أيلول من نفس العام حركة الأنيانيا[17] مما أدى إلى تدهور الوضع الأمني وعقب مظاهرات أعلن الفريق عبود استقالته وانتهى الحكم العسكري في أكتوبر/تشرين الأول عام **1964** وبعده انتخب الصادق المهدي رئيساً لحزب الأمة وقد شهد الحزب المذكور انقساماً حاداً داخل أُسرة المهدي بين الصادق المهدي وعمه الهادي المهدي تحول إلى صراع على السلطة وبضغوط انتهت باستقالة الصادق المهدي من الرئاسة عام **1966** وأصبح الصادق رئيساً للوزراء ولكون شخصية الصادق كانت غير مستقرة سقطت عام **1967** واستمرت التحالفات والصراعات حتى تنفيذ انقلاب بقيادة جعفر النميري في **25**/مايو/أيار /**1969**، ولا زالت السودان في ظل ظروف اقتصادية صعبة، هَزَّ علي العراقي رأسه أسفاً على

[16] حزب سانو: الاتحاد السوداني الإفريقي الوطني بزعامة جوزيف لاقو كداعية الى استقلال الجنوب

[17] الأنيانيا : وتعني الأفعى السوداء السامة بلغة قبيلة المادي التي ينتمي اليها زعيم ومؤسس الحركة جوزيف لاقو لتشن حرب عصابات على المديريات الثلاث (أعالي النيل ، وبحرالغزال، والاستوائية)

أحوال البلدان وما يفتك بها قائلاً : خذلك قرص براسيتول لتريح أعصابك تبسم ضاحكاً محمد السوداني وهو يُدندن: إزيكم كيفنكم[18] .. أنا لي زمان ما شفتكم.. مشتاق كتير.. كتير كتير لي حيكم حرام حرام ردوا عليّ، ويحرك رأسه بحركاتٍ اهتزازية... قهقه علي العراقي وسعيد الأردني حتى سالت الدموع من عينيهما من شدةِ الضحك، تنحنح سعيد الأردني ثم قال: إن الشاعر ابن زريق البغدادي[19] كان يقول في شعره: كُلُّ من جِئتُ أَبْتَغِي عنده دوا .. يَتَشَكى شِكْيَتي كُلُّنا في الهواء سوا ... ، رد عليه محمد السوداني إنك تعني كُلُّنا في الهواء سوا، هَزَّ علي العراقي رأسه مؤيداً، جال نظر سعيد الأردني إلى صديقيه حتى قال: سميت دولتي بالأردن نسبة إلى نهر الأردن أعلنت استقلالها في **25** مايو عام **1946** ونودي بالأمير عبد الله الأول ملكاً عليها حتى تسمت بالمملكة الأردنية الهاشمية، وبعد انسحاب القوات البريطانية من فلسطين وإعلان قيام دولة إسرائيل عام **1948** دخلت الأردن الحرب مع إسرائيل إلى جانب الدول العربية وفي عام **1949** تم ضم الضفة الغربية إلى المملكة الأردنية وفي العام التالي تم اغتيال الملك عبد

---

[18] إزيكم كيفنكم : أغنية سودانية بالثمانينات للمغني سيد خليفة

[19] ابن رزيق البغدادي: هو أبو الحسن علي أبو عبد الله بن زريق الكاتب البغدادي وشاعر عباسي ولد في بغداد الا أن تاريخ ولادته مجهول، ارتحل من موطنه الأصلي في بغداد الى بلاد الأندلس توفى عام 1029م . والمراد كُلُّنا في الأمر سواء هذا التعبير مجازي فلايراد بكلمة (الهوى) معناها الحقيقي قال الشاعر : كُلُّ من جِئتُ أَبْتَغِي عنده دوا .. يَتَشَكى شِكْيَتي كُلُّنا في الهواء سوا. أي أنه صار تعبيرا اصطلاحيّاً بلاغيّاً جري مجرى المثل وشاع استعماله بهذا المعنى المجازي.

الله الأول وفي **1951** خلفه ولده الأمير طلال في الحكم إلا إنه لم يستمر في الحكم بسبب سوء وضعه الصحي لكنه تمكن من إصدار الدستور عام **1952** حتى خلفه ولده الحسين بن طلال ولكونه لم يبلغ سوى **17** سنة استلم مجلس وصاية على العرش وعندما أتم الثامنة عشر من عمره تولى سلطاته عام **1953** إلا إنه سرعان ما دخلت حرب مع إسرائيل عام **1967** وخسرت فيها القدس والضفة الغربية ونزح آلاف الفلسطينين إلى الأردن وفي عام **1968** عبرت القوات الإسرائيلية الحدود الأردنية وبالإشتراك مع الفدائيين الفلسطينين اضطرت إسرائيل إلى سحب قواتها ولتدخل الفصائل الفلسطينية في شؤون الأردن أدى إلى طرد الفصائل الفلسطينية من الأردن عام **1970** وسميت هذه بأحداث أيلول وفي **6** تشرين عام **1973** اندلعت الحرب بين مصر وسوريا من جهة وإسرائيل من جهة أخرى فقامت الأردن بإرسال لواء مدرع إلى الجبهة السورية وفي عام **1974** وافقت الأردن أن تصبح منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، قاطعه محمد السوداني كُلُّنا في الهوى سوا، كما قلت لك ياصديقي، تبسم علي العراقي قائلاً: لأشك من إنكما قد عرفتما الكثير من التفاصيل عن بلدي عندما كنا جالسين سوية قبل أيام، ضحك محمد السوداني قائلاً: العراق غني عن التعريف فأخبار الحرب بينه وبين

إيران في كل قنوات العالم، قطع النادل كلامهما بقوله: تطلبون شيئاً أجلبه لكم، أجابوا قائلين: لا شكراً .

قَلَب المحقق أوراق التقارير فكانت البصمات على السكينة تعود إلى المجنى عليه رؤوف فقط والدم يعود له أيضاً، أما نتيجة التقرير الطبي تبين بأن المجنى عليه كان أيسر ويستعملها يده اليُسرى في كل شيء وأن مكان وبداية الذبح والجرح من أعلى الرقبة من الجهه اليمنى بعمق كبير ولما خارت قوى المجني عليه انتهى الجرح بعمقٍ بسيط وهذا يدل على الانتحار، ولنتيجة بحث دقيق في مكتب المجني عليه فقد عَثر أحد أفراد مفرزة المباحث على ورقة تحت الطاولة الدائرية، كُتب عليها: بعد تأنيب الضمير للجرائم التي ارتكبتها في مقتل والدي والمربية الطيبة واستخدام طرق احتيالية لغرض توريط صديقي الملازم رأفت حتى حكم عليه بالسجن بسببي وقيامي بأمر الخادمين عندي باغتصاب زوجة شقيقي المرحوم سامح وحرمانها من طفلها وإخفائه عند عائلة فقيرة تقبع بالقرب من أنقاض تحت الجسر واغتصاب زوجة الخادم أبو الهول وتسببت في خلق عداوات كثيرة لذا قررت الانتحار، نهاية الورقة توقيع يعود للمجني عليه، أخذ المحقق الورقة بعد التمعن في قراءتها وأخذ يُردد: كل المتهمين قد قضوا أياماً في السجن وهم أبرياء، كَتبَ مُطالعة مطولة لقاضي التحقيق يفصل فيها

نتيجة التقرير الطبي العدلي التشريحي ونتيجة فحص الدم وملخص الورقة التي عثر عليها ورفقها مع الأوراق التحقيقية، في ذلك الوقت عرف المحامي كل التفاصيل التي استجدت بالحادث فسارع بالاتصال بعلي العراقي يبين له ذلك وهو مشغول بتوقيع طلب البراءة لموكلته نادية، انتظر علي مع المحامي حتى الساعة الواحدة بعد الظهر لمعرفة قرار القاضي الذي تمخض عن ابتسامة تشرح القلب للمحقق وهو يخبرهم بأن القاضي قرر براءة نادية وإطلاق سراحها فوراً من التوقيف مالم تكن مطلوبة عن قضية أخرى وطلب منهم مرافقته لحين إتمام إجراءات إطلاق سراحها وكانت الفرحة بفرحتين عندما أخبرهم بأنه قد وجد الطفل نادر وهو الآن في غرفة ضابط المركز، عانق علي العراقي المحامي المصري وقبّله من خديه وشكره كثيراً لأنه محامي المظلومين والأبرياء وهذا يُسجل له بالإضافة إلى سجله الزاخر بالانتصارات على الباطل وإنقاذ الأبرياء وكذلك اتصل بالمحامي العراقي العكام ليشكره على الاستشارات القانونية والتي تبين الخبرة المهنة القانونية الرفيعة التي يتميز بها المحامين البابليين النابعة من عُمق الحضارة السومرية والأكدية والبابلية، لكن ما مصير الآخرين الموقوفين على نفس القضية؟

كان القاضي قد قرر إطلاق سرح البواب لعدم علاقته بالحادث بالإضافة إلى الرجل معصوب العين والمرأة اللذين عثرا على الطفل عندهما لثبوت برائتهما من حادثة القتل أما المتهم السجين الهارب رأفت فقد تم الإفراج

عنه عن تهمة القتل ولكنه بقي موقوف عن التهمة الأخرى لحين إكمال إعادة المحاكمة لوجود أدلة مقنعة (الورقة التحريرية بخط المجني عليه) تثبت براءته، أما المتهم أبوالهول أفرجت عنه المحكمة عن تهمة القتل وتم فتح قضية بحقه عن واقعة الاغتصاب التي تعرضت لها نادية، والصعيدي كان من ضمن المُفرج عنهم.

سمعت نادية بالخبر في السجن حتى أُغمي عليها، فتحت عينيها فإذا هي بغرفة المحقق وابنها يُنادي... ماما! ماما! أنتِ بخير احتضنته بقوةٍ حتى سقطا على الأرض والدموع تجري من مقلتيها كالشلال الصافي تُقبْلَه من خديه ومن فمه حتى سالت دموع الموجودين، نظرت إلى علي العراقي وقد اغرورقت عينيه بالدموع وقال: الحمد لله الذي أفرج عنكِ، حَدقت عليه والدموغ تغسل وجهها الأنثوي البريء وقالت: مهما شكرتك لن أفيّ بحقك وفضلك كبير يا شريف يا شهم يا أصيل هذا من كرم أصلك العراقي والغيرة الحقيقية، وفي تلك الأثناء أخبرهم المحقق بأن رؤوف ليس له أي وريث سوى نادر فهو الوريث الوحيد لكل أملاكه، وأن الدار الكبيرة صارت لنادر اذهبوا وخذوا مفتاح الدار، عندما خرجوا قالت لعلي العراقي: وجهك خير علينا، وسوف أزورك إلى شقتك مع ولدي.

سارت نادية مع طفلها في وسط الأشجار بالطريق المؤدي إلى دارهم الذي ورثه ولدها، تنظر إلى السماء الزرقاء الصافية وولدها يسحبها مُسرعاً بضحكاته البهلوانية، وصلت إلى البوابة التي كانت مُغلقة، لا أحد يقف عندها كما كانت في السابق، بواب، خدم، مُربية، وضعت المفتاح بالباب تذكرت أول يوم حضرت مع أمها إلى تلك الدار وخروج سامح، فرت دمعه من عينيها، دخلت تنظر إلى كل مكان كان لها ذكرى فيه، حدثت نفسها: كيف أستطيع العيش في مكان تم اغتصابي فيه وتعرضت إلى أقسى أنواع الظلم والتعذيب، بدأت تكلم ابنها: يا نادر هنا التقيتُ مع والدك كان شاب جميل المنظر مُفعم بالعنفوان، ابتسم ليّ ساعتها دَق قلبي له، أشارت بيدها إلى شجرةِ المانجو وقالت: هنا وقفت معه وتبادلنا الحديث، وعندما دخلت إلى داخل الدار: هنا يا نادر خدمت مع والدتي في دار جدك، وهنا... أنكست رأسها وتمتمت بكلام لم يسمعه ابنها: هنا تم طردي من الدار وهناك في المخزن تم اغتصابي... بدأت تشهق بالبكاء إلا أن نادر احتضنها ونادى عليها: ماما، ماما أنا أحبك لا تبكي، اتصلت بالمحامي تشكره عن موقفه المشرف في الوقوف بكل شجاعة معها، وأخبرها الأخير بأن ذلك الشاب العراقي كان طوال الوقت برفقته وقد دفع أتعاب المحاماة وقد علمت بأنه باع قلادة ذهبية كانت والدته قد أهدتها له لتحمية من المصائب، في صباح اليوم الثاني استأجرت سيارة أجرة وطلبت منه التوجه إلى شقة علي العراقي مع ابنها نادر وكان العندليب المصري عبد الحليم حافظ يغني (نار

ياحبيبي نار) إن تلك الأغنية قد أخذتها بعيداً عندما كانت ساعتها تجلس بالقرب من سامح وأدار المذياع، كانت أول مرة تحس بقلبها ينبض بالحب، وهي تفكر في زوجها المتوفى والأيام القاسية التي مرت عليهما، وصلت إلى شقته وعندما خرج لها ودخلت، تذكرت كل مكان في شقة علي العراقي، أيام قضتها بين الخوف والقلق وحنان علي العراقي الشاب الشهم الذي أعطاها كل فرص الأمل والحياة، شكرته كثيراً وطلبت منه الذهاب معها إلى السوق للتبضع بصحبته، وعندما وصلا إلى سوق الذهب، أقسمت عليه بأُمه وكل غالٍ أن يَدلها على محل الذهب الذي باع له القلادة، رفض ذلك لكنها توسلت له وأفهمته بأنها بخير، كان صاحب المحل قد عرف علي العراقي، أفهمته نادية بدوره وكرمه وشجاعته وما قام به من أجلها، أعاد القلادة واشترت له خاتم بنقش فرعوني للذكرى، لم يسأل علي العراقي عن مذهب نادية وميولها ولايهمه ذلك إن كانت مسلمة أم مسيحية لأن شعاره كان دائماً الإنسانية أولاً كما كان يردد ذلك لوالده عبد الله قبل سفره إلى مصر بأن الإنسانية أولاً في كل المواقف.

بعد مرور عامّ .

أنهى حسين العراقي دراسة الماجستير بالقانون بعد شقاء وتعب وسهر الليالي وغُربة قاتلة وحصل على درجة جيد جداً وتوج هذا النجاح بالإتفاق

مع زملائه من الطلبه المصريين والعرب أن يأخذوه بنزهةٍ سياحية في مصر ومن ثم التبضع ببعض الهدايا ليأخذها معه إلى أهله حيال عودته، توجهوا إلى الأهرامات وهو ينظر إلى بنائها الحجري الشامخ المنسق وفق هندسه معماريه رائعة وشاهد القطع الأثرية والكتابات والرموز المصرية القديمة ولوحات تعريفيه كتب على إحداها (إن أول من أطلق على الكواكب أسمائهم هم القدماء المصريين وكانوا يشبهونها بالحيوانات) وصلوا إلى تمثال أبو الهول فهو تمثال جسمه جسم أسد ورأسه بشري يحرس المقابر والمعابد وقد نحت من الحجر الكلسي ورأسه تمثل الملك خفرع ويرمز أبو الهول إلى القوة والحكمة والذكاء وهو صورة للإله رع إله الشمس وطوله **20** قدماً وارتفاعه **70** قدماً، كانت نزهة جميلة أدخلت النشوة إلى جسد علي العراقي الذي قضى معظم وقته في الدراسة وتوجهوا إلى القاهرة وبدؤوا يتجولون في شوارعها فتفاجأ بصوتٍ عالٍ لبائع الصحف ينادي: اقرأ الأهرام أخبار عن امرأة تقتل رجل شرطة.

فتلك الكلمات عادت إلى ذاكرته قصة نادية التي نامت على فراشه وكانت فريسة الظلم والجشع والقسوة، تناول الصحيفة وبدأ يقلب بها دون أن ينتبه بأن الحدث في الصفحة الأولى بالخط العريض مكتوب:

(امرأة تقتل رجل شرطة) وصورةٍ كبيرةٍ تحت الحدث، حدق بها، امرأة كبيرة، سوداء اللون، تبسم وقال في نفسه: نادية قد تم الإفراج عنها منذ عام وهي قد زارتني قبل أشهر فلماذا هذا الخوف والقلق.

في صبيحة اليوم التالي أعد حقيبته السوداء التي أعدتها له والدته عند سفره إلى مصر كان متلهفاً بالعودة إلى أحضان والديه وأشقائه وشقيقاته وأرضه وإلى النخيل والأشجار والهواء الذي يحيط بأهله وإلى ذكرياته الجميلة التي قضاها في طفولته ولكن في تلك الأثناء نظر إلى السرير الذي نامت عليه ناديه وحديثها وآلامها وبكائها.

حمل حقيبته واستأجر سيارة، أخبر السائق بأنه يروم الذهاب إلى المطار وفي الطريق كان ينظر إلى الشوارع والعاصمة ببنائها الشامخ والسماء الصافية وألقاب لماعة تُزين الجدران وإلى السيارات المكتظة بالركاب ونسمات الهواء العذبة تُداعب خِصال شعره بتلذذٍ لكن صوت السائق وارتجاج سيارته قد أفسد عليه متعة النظر قائلاً:

_ أوه عطل " قبل يوم قمت بتبديل العجلات .

-إن ذلك يحصل مع كل السائقين لأن الإطارات قابلة للإستهلاك.

حاول السائق تبديل العجلة بعجله احتياطية لكنه تفاجأ بعطلها أيضاً فاعتذر عن إيصاله، وضع يده في بنطاله ليخرج له الجُنيهات التي أخذها لقاء إيصاله لكنه رفض ذلك .

حمل حقيبته وسار على الرصيف يلتفت يميناً ويساراً وهو يتطلع إلى المحلات وكان كل تفكيره بأهله الذين فارقهم طيلة فترة دراسته وفي تلك الأثناء وقع بصره على قطعه كُتب عليها (سجن النساء) فتلك القطعة قد أحدثت في كيانه صدمة كبيرة وألماً وذكرى حزينة للمظلومة نادية، قرر الذهاب إليها ليتعرف على أحوالها وما تحتاج إليه سار بسرعة واجتاز الشارع وهو ينظر بعينيّن قلقتيّن إلى الحارسين اللذين كانا واقفين في البوابة وهما يحملان بندقيتين على كتفيهما فاقترب منهما وأحدهما نظر إليه، سارع بالسؤال :

_ الطريق إلى المطار من أي جهة ؟

_ على اليمين .

_ شكراً لك، وتبسم ضاحكاً : ماذا فعلت هل جُننت؟

استأجر سيارة إلى المطار وصورة نادية لم تفارق خياله وبكاؤها عاد إلى ذهنه من جديد الصور البشعة للشخصيات الظالمة وأحداث القضية والمتهمين والأيام الذي قضاها بين القلق والخوف ودور المحامي وقرارات المحكمة التي أصدرت قرارها بكل حيادية وعدل، كان الجو الذي يحيط به مشحوناً والتوتر والاشتياق لأهله ووطنه، عند وصوله جلس على أحد الكراسي في صالة المطار، طلب كوب شاي، بدأت الأفكار تتزاحم في مخيلته، صورة ناديه وابنها، وجه أبيه وأمه وأحبائه، شهادته التي حصل عليها بتفوق تتقلب أمام عينيّه اللتين بدتا متعبتين لكنه في النهاية فكر

بالرجوع إلى القاهرة لرؤية نادية مهما يكن الأمر التي لا تعرف وقت عودته إلى العراق، وفي هذه الأثناء ذهبت نادية إلى شقته لتدعوة لتناول وجبة عشاء في دارها وعندما وصلت وجدت الشقة مُغلقة حزنت كثيراً وسألت بواب العمارة أخبرها بأن علي العراقي حمل حقيبته للسفر إلى العراق قبل ثلاث ساعات تقريباً، استأجرت سيارة وطلبت منه زيادة السرعة حتى تصل إلى المطار، ارتشف الشاي بسرعة رغم حرارته وأعطى النادل بعض الجُنيهات وحمل حقيبته وهم بالرجوع إلى دار نادية لغرض توديعها وعند وصوله إلى باب المطار سمع صوتاً يخرج من مكبرات الصوت القريبة من الباب الخارجية للمطار..

(التوجه إلى البوابة رقم **10** بغداد .. رجاءً)، أنزل الحقيبة على الأرض والتفت إلى الخلف كانت أنفاس أمه وصورتها البريئة وبكاؤها وابتسامة شقيقاته وأحضان أشقائه وشوارع الحِلّة ومياه نهر الفرات والنخيل والأشجار وجيرانه وذرات التراب وذكرياته من الطفوله حتى آخر يوم رحيله إلى مصر والهواء الذي طالما اعتاد عليه، كل ذلك فجر في فؤاده ذلك الحب العظيم الذي يتربع في قلب الغريب وعشقه لأهله ووطنه، أعطى جواز سفره، ضابط الجوازات نظر إليه دقائق ثم وضع ختم المغادرة، حَلقت الطائرة إلى الأعلى شيئاً فشيئاً وهو ينظر إلى البنايات التي بدت كمكعبات صغيرة وهو يلتفت لعله يَلمح دار نادية بأي جهة أصبح وماذا تفعل بهذا

الوقت، وعند وصول نادية إلى بوابة المطار شاهدت طائرة قد أقلعت هَمّت بسرعة حتى دخلت صالة المطار وسألت أحد مندوبي الشركات قائلة: الطائرة المتوجه إلى العراق غادرت.. نعم غادرت قبل دقائق، حزنت كثيراً لكنها قالت في النهاية: تصل سالماً بإذن الله يا طيب ولَعلّ الأيام تجمعنا ثانيةً، بعدما حَلَقت الطائرة في كَبدِ السماء نظر إلى الغيوم التي أصبحت تحته كأنها أرْض مُغطاة بالملحِ، إحساس غريب انتابه، فكر في نفسه: كيف لهذه الكومة من الحديد أن تطير في الهواء، حرك رأسه: التقدم العلمي والتطور التكنلوجي الذي تطور بعد محاولات - العالم والمُخترع والفيلسوف والشاعر الأندلسي من قرطبة عباس بن فرناس- للطيران باستعمال جناحين وكانت إنجاح أول محاولة طيران بشري في التاريخ وكان ذلك بالقرب من قصر الرُصافة في مدينة بغداد إلا أن عالم الرياضيات والفلك الفيلسوف الإغريقي أولس جيليوس قام بتصميم آلة تطير بواسطة محرّك بخاري وكان ذلك عام **400** قبل الميلاد، ارتفعت الطائرة إلى الأعلى سبب ذلك آلام في أُذنيه، تسائل مع نفسه: هل أبي وأمي بصحة جيدة ؟ وهل أصاب أحد من أشقائي مكروه في الحرب؟ وما هو مصير شقيقي حسين في السجن، حيث إن آخر رسالة من والده تخبره بأنه تم إلقاء القبض على شقيقه من قبل أزلام النظام واقتادوه إلى الفرقة الحزبية لهروبه من الجيش؟ وماهو مصير شقيقاته؟ هَزَّ رأسه: كل شيء سوف أتفاجأ به عند

وصولي، بدأت الطائرة تجوب عباب السماء وتخترق الغيوم المارقة أمامها، سرعان ما استسلم إلى نوم عميق...

انتهت

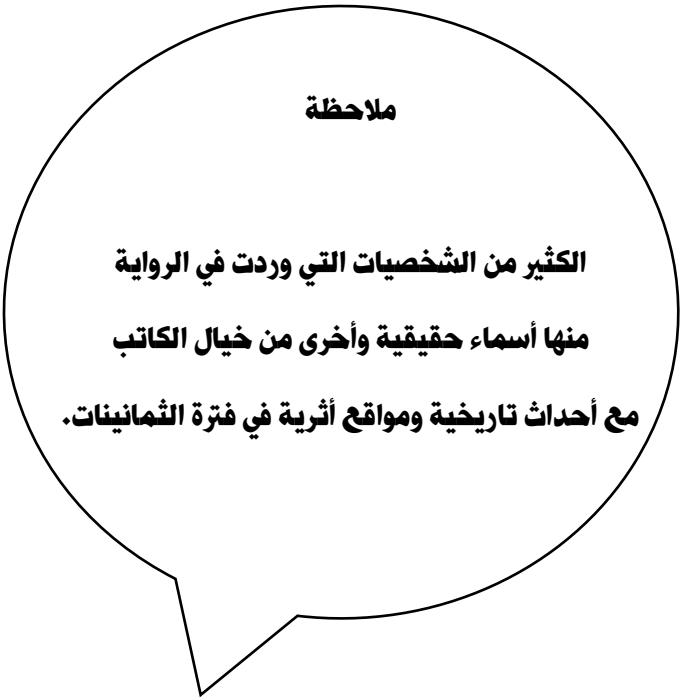
ملاحظة
الكثير من الشخصيات التي وردت في الرواية
منها أسماء حقيقية وأخرى من خيال الكاتب
مع أحداث تاريخية ومواقع أثرية في فترة الثمانينات.

المصادر

1-مهزلة العقل البشري _الدكتور علي الوردي

2-دراسة في طبيعة المجتمع العراقي –الدكتور علي الوردي أستاذ علم الإجتماع في جامعة بغداد

3-النهضة الفكرية الحديثة في الحلة **1850**---**1914** (دراسة تاريخية) تأليف الدكتور علي هادي عباس المهداوي

2-بحث تأريخي – الحلة الفيحاء /موطن العلماء ومقر الاولياء –للباحث عباس العلوي

4-الامارة المزيدية الاسدية في الحلة /دراسة في أحوالها السياسية والحضارية – الدكتور عبد الجبار ناجي / **1431**—**2010**م ط**2**

5-كتاب الديارات لأبي فرج الأصبهاني

6- كتاب أحوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية تأليف رفائيل بابو إسحاق.

7- دراسة للدكتور رافد علاء الخزاعي ، حلم الطيران نحو الشمس رسالة إلى عباس بن فرناس

8- كتاب السودان وأهل السودان أسرار السياسة وخفايا المجتمع، تأليف يوسف الشريف.

9-حبيب تومي/اوسلو-مقال في جريدة الحقيقة بعنوان(اليوم الأخير من حياة عبد الكريم قاسم .

10-العراق في عهد قاسم .اويل دان نقله الى العربية جرجيس فتح المحامي

11- سلام عبود _ثقافة العنف في العراق

12-حنا بطاطو – العراق /الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهوري –الكتاب الاول ترجمة عفيف الرزّاز.

13-التطورات السياسية في السودان – تأليف سرحان غلام حسين العباسي. ط**1**

14-مقال منشور في الحوار المتمدن للكاتب نبيل عبد الأمير الربيعي_ صلاح حسن والجزع البابلي **2011/4/25**

15-تاريخ الأردن في القرن العشرين **1958**-**1995** الجزء تأليف سليمان الموسى.

16-مقال في جريدة الحوار المتمدن للاستاذ زهير كاظم عبود بتاريخ **2008/1/20** (أنور شاؤول الذي يحمل العراق في تلافيف روحه .

سيرة المؤلف

الاسم / غانم عمران عبود المعموري

العراق / بابل/ الحلة / 1969

-عضونقابة المحامين العراقيين

-عضو اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين

-عضو اتحاد أدباء وكتاب بابل

-محامٍ في رئاسة محكمة استئناف بابل الاتحادية

-خبير قضائي في رئاسة محكمة استئناف بابل الاتحادية

-عضو نادي الهايكو العربي

-عضو نادي الهايكو للطفل

-عضو مجلة شذرات وامضة الأدبية

-عضو منتدى السياب الأدبي

-عضو المؤسسة العربية للآداب والفنون والثقافة

-قصص قصيرة جداً مترجمة إلى اللغة الإنكليزية بعنوان (عناقيد الجمر) صادرة من ديوان العرب للنشر –جمهورية مصر العربية

- كتاب منشور بعنوان (الوصية الواجبة وأحكامها دراسة مقارنة) صادر من دار الأرقم للطباعة والنشر 2013

-أشترك في قصة قصيرة في كتاب ديوان القصة / انطولوجيا القصة البابلية للدكتور سعد الحداد الصادر من دار بابل للثقافات والفنون والإعلام دار الضياء للطباعة 2013

-قصص قصيرة جداً منشور في كتاب ألكتروني (أوتار الادب) كتاب الوطن العربي الجزء الثاني صادر من دار الوتر الحزين للنشر الإلكتروني.

-قصص قصيرة جدا منشورة مع أدباء الوطن العربي بعنوان ترانيم القصص الجزء السادس معروض في معرض القاهرة الدولي 2017

_قصص قصيرة جدا منشوره مع مجموعة من أدباء العراق والعرب بعنوان (ترانيم الحرف) صادر من دار المتن –اصدارات منظمة إدراك. 2018

-قصائد الهايكو منشور في كتاب الكتروني بعنوان (هبة الريح) والثاني بعنوان (الصمت)

-قصص قصيرة بعنوان (ثلاثون وجهاً للحب)مع مجموعة من المؤلفين صادره من بيروت

- شهادة تقديرية في مشاركته بمهرجان حبيب الله الثقافي الدولي التاسع في الناصرية 2018

- قصص أطفال حصل فيها على شهادة تقديرية بعنوان (حكمة رجل عجوز، اللص والمعلم الذكي، إيمان والمرأة العجوز، التاجر الحكيم، بائع أكوام التراب، نموّل والضفدع الشجاع، شجرة النبال الشوكية). وحصل على

العيديد من الشهادات التقديرية في مسابقات قصص الأطفال أدب الطفل والمرأة والقصة القصيرة والقصة القصيرة جداً وأغلب القصص القصيرة جداً المنشوره قد حصلت على شهادات تقديره وبالمركز الاول ومراكز متقدمة وفي مجال الومضة بكافة أنواعها وفي الشعار الادبي وفي الهايكو وأغلب منشوراته في صحف عراقية ومجلات عربية وحصوله على المركز الأول في أدب المرأة في القصة القصيرة (نحو المجهول)(مولود)

-مجموعة قصص قصيرة بعنوان / الياقوتة بنت اللؤلؤة قيد الطبع

-مجموعة قصص قصيرة للأطفال بعنوان اللّص والمعلم الذكي. قيد الطبع

- الإيميل mamameme60.mm@gmail.com

Biography of the author

-Name / Ghanem Omran Aboud al-Mamure

-Iraq-Babylon

-Member of the Iraqi Bar Association

-Lawyer in the Presidency of the Court of Appeal of Babylon Federal

-Judicial expert in the Presidency of the Court of Appeal of Babylon Federal

-Member of the Arab Haiku Club

-Member of the Haiku Club for the child

-A book published entitle (The Will and Its Provisions Comparative Study)

-Issued by Al-Arqam press for printing and publishing

-Participate in a short story in the book Diwan story / Anthology of the Babylonian story by Dr. Saad al-Haddad issued by the Babylon House for cultures .arts and media

-Very short excerpts published in an electronic book (Al-Water Al-Hazeen) Book of the Arab World Part II issued by The Sad Tendon Press an electronic publication

-Very short stories published with the writers of the Arab world entitled The Hymns Stories Part VI presented in the Cairo International Exhibition

-Haikou poems published in an electronic book entitle Gift of Winds and the second entitle Silence

-Children's stories in which he received a certificate of appreciation entitle (The Wisdom of an Old Man, The Thief and the Smart Teacher, Eman and the Old Woman, The Wise Marchant, Seller of Piles of Dirt) and get many of the certificates of appreciation in children's stories competitions, children's literature and women, short stories, very short story in the field of flash. most of his publications are in Iraqi and Arab newspapers and his first position in the short story of women's literature (Towards the (Unknown

-Short stories collection entitle "Alyaquata

-Bint Alluwliwa" which is in print

-Email mamameme60.mm@gmail.com

جازتاب

رواية

غانم عمران المعموري

الطبعة الأولى
1442 هـ 2020 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد
جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com